

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شعبية

فاسم أمين

وتحرير المرأة
د. محمد عمارة



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبوالمجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس
سكرتير التحرير : عايد عياد

المعد ٣٥٢ - جمادى الأولى ١٤٠٠ - أبريل ١٩٨٠

No. 352 - April 1980

مركز الاداة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عندا - في جمهورية مصر العربية
جنهان مصريان بالبريد العادى • وبلاذ اتحادى البريد المصرى
والافريقى وبباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى
سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا
بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لتقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج • م • ع
بحواله بريديه غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرى لامر مؤسسة
دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه
عند الطلب •

الغلاف بريشة
الفنان احمد الوردجى

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيونى

الإسكندرية

دكتور محمد غماره

قاسم أمين وتحرير المرأة

دار الهلال

تقديم

ليست الريادة هي المعيار الوحيد الذي يكسب المفكر والمصلح مكانا عاليا وهاما في حركة تطور المجتمع الذي يعيش فيه ، وان تكن لها ميتراتها ووزنها وتكاليفها التي تضفى على أصحابها الكثير من المجد والتقدير .
وفيما يتعلق بارتداد المفكرين والمصلحين في شرقنا العربى الاسلامى ، في العصر الحديث ، لميدان الدعوة الى تحرير المرأة المسلمة والشرقية ، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين مرضوا بالتأريخ لذلك الحدث الذي حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون ان يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور « المملوكية - العثمانية » المظلمة الى اعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التى افاءها على الشرق عصر التنوير الذى بداته مصر في عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) ، وقادت الشرق الى ساحاته منذ ذلك التاريخ .

فهناك من يرى ان فضل الريادة في هذه الدعوة ، الى تحرير المرأة معقود لقاسم أمين ، وان اول صيحة لهذا التحرير هي صيحة قاسم أمين ، في كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) (١) ومؤدى هذا الرأى ان الدعوة الى

(١) د. محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص ١٥٢ - طبعة القاهرة - مطبعة مصر - بدون تاريخ .

تحرير المرأة لم تعرفها مجتمعاتنا الشرقية ، ومصر
بالات ، قبل تاريخ صدور كتاب (تحرير المرأة)
فى سنة ١٨٩٩ م .

وهناك من يرى ان الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من
المصريين فى سلوك هذا السبيل ، وان الآستانة قد ارتفعت
فيها هذه الصيحة قبل القاهرة ، وان صحيفة (الجوائب)
قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ -
١٨٨٨ م) الى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين . .
ويعلمون سبق الأتراك الى هذا الميدان « بكثرة اختلاطهم
بالأجانب ، وسبقهم فى الاطلاع على أسباب التمدن
الحديث » (٢) .

واذا ما كان السؤال : أيهما أسبق فى الدعوة لتحرير
المرأة : أحمد فارس الشدياق ؟ أم قاسم أمين ؟ فان
البداية تعطى السبق للشدياق . . فهو قد عاش ومات
قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحريرها ، وصحيفة
(الجوائب) قد صدرت (١٨٦٠ م - ١٢٧٧ هـ) أى قبل
مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات . .

ولكننا لن نعثر على الحقيقة فى قضية الريادة لهذه
الدعوة اذا نحن وقفنا عند هذه الحدود التى يرسمها
أصحاب هذا الخلاف . . ذلك ان هناك وقائع أخرى
نراها هامة وضرورية لن يربد الوصول الى كلمة سواء
فى هذا الموضوع .

فأولا : كانت مصر ، فى ظل الدولة المدنية الحديثة ،
التي قاد انشاءها محمد على أسبق الى حركة التمدن

(٢) « الهلال » تابين قاسم أمين . انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب
قاسم أمين (أسباب ونائج وأخلاق ومواعظ) طبعة الاسكندرية سنة
١٩١٣ م .

الحديث بكل مناحيها وأشكالها - ومنها الدعوة لتحرير المرأة - من المجتمع العثماني ، ولقد بدأت انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملها وتحدث تأثيراتها في الدولة العثمانية ذاتها ، حتى قيل : « ان النهضة العثمانية ، بكل فروعها ، مسبوقه في مصر ، ومقتبسة عنها (٣) . » فالريادة هنا لمصر ، لا للأتراك العثمانيين . . وذلك اذا أخذنا قضية التمدن الحديث واندخول الى عصر النهضة والتنوير على وجه الاجمال .

وثانيا : اذا نحن اردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية التي قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم ، وهي تلك التي أنشأها محمد علي للتمريض ، وغيره من الفنون . . وهو تاريخ سابق على صدور (الجوائب) في ستينات ذلك القرن بثلاثة عقود تقريبا .

واذا نحن نقبنا في الفكر العصري الذي شهدته مصر في ظل تلك الدولة الحديثة ومجتمعها ، وجدنا الدعوة ، غير المباشرة ، الى تحرير المرأة وتعليمها معلنة في كتاب رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) « تخليص الابرين في تلخيص باريز » وتاريخ تأليفه سابق على اكتوبر سنة ١٨٣٠ م ، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤ م (٤) وهو قد ترجم الى التركية في ذلك التاريخ .

كما نجد الدعوة الى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل في التعليم تظهر في مداوالات (لجنة تنظيم التعليم) التي كان الطهطاوي عضوا بها ، فتقترح هذه اللجنة في سنة ١٨٣٦ م « العمل لتعليم البنات في مصر » تعليما

(٣) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة . ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

(٤) « الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي » دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ، ج ١ ص ٧٨ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ .

يتخطى حدود الضرورات العملية التي كانت تحكم مناهج المدارس التي كانت قائمة للبنات في ذلك التاريخ . وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الأتراك في الدعوة الى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها .. ويسبق الطهطاوى الشدياق ، وغيره ، في ارياد هذا الميدان .. ثم يأتى كتابه (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذى كتبه فى بداية السبعينات بتكليف من (ديوان المدارس) كى يدرس فى مدارس البنات .. يأتى حاويا لكثير من الآراء ووجهات النظر التى يمثل مجموعها أول بناء فكرى شبه متكامل يكرسه مفكر عربى لقضية تحرير المرأة فى مصرنا الحديث .

تلك هى قضية الريادة فى هذا الميدان .. فهى لمصر محمد على ، وليست لتركيا آل عثمان .. وهى للطهطاوى ، وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين .

ولكن .. تبقى لقاسم أمين ، فى هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من هداه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم فى هذا السبيل .. فكل من عدا قاسم أمين كان حديثهم عن تحرير المرأة والنهوض بها أمرا من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وآثار .. أما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذى وهب كل جهوده وجميع آثاره - تقريبا - لهذه الدعوة ، حتى لقد ذهب علما عليها ورمزا لها ، تتداعى قضاياها وحجج أصحابها اذا ذكر اسمه فى أى وقت وأى مجال .

بل ان كل الجوانب الأخرى التى مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفكر قاسم أمين وموقفه الإصلاحى ، وهى الجوانب التى ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ،

انما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه
لهذا الأمر الخطير .

● فمنهجه الاجتماعى فى البحث .. ومذهبه فى رؤية
التاريخ وتطور المجتمعات .

● وانتماؤه الاجتماعى والفكرى .. والمجتمع الذى
بشر به .

● وموقفه من « التمدن الاسلامى » وفهمه لهذا
التمدن .

● ودعوته فى اصلاح الاجتماعى .. والتربوى ..

● وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة ..
ومزاجه المعتدل فى الوطنية .. وتقييمه لتجربة
مصر الحديثة ..

كل هذه القسمات ، وغيرها ، فى فكر قاسم أمين
ومذهبه الاصلاحى ، قد تبدت من خلال حديثه عن
القضية الأساسية التى نذر نفسه لها .. وهى قضية
المرأة الشرقية والمسلمة ، والعمل على الانتقال بها من
ظلمات جاهلية العصور الوسطى الى انوار تحضر العصر
الحديث .

فاذا لم تكن ريادته ريادة سبق .. واذا لم يكن سبقه
سبق زمان وتاريخ .. فان له الريادة فى تكريس كل جهده
الفكرى لهذه القضية قبل غيرها ، بل ودون غيرها -
تقريبا - من قضايا الاصلاح ..

واذا كانت هذه الدراسة التى تقدمها عن قاسم أمين
ستضع ، من خلال فصولها القادمة ، فكر القارئ
والباحث على حقائق وقسمات فى فكره لم يلتفت اليها
كثير من دارسيه ، فان الفضل فى ذلك - بعد المنهج

العلمي الذي نتناول به دراسة فكره - يعود الى مجيء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة ، خصوصا وانها الدراسة الأولى التي تهتم كثيرا برصد تطوره الفكري . بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه « المصريون » الذي رد به على الدوق الفرنسي « داركور » . . والذي كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين .

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيدا عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤ م حتى تاريخ تقديمنا له بالعربية ، ضمن أعماله الكاملة سنة ١٩٧٦ م . . ومن هنا كان الجديد الذي تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين ، مرتبطا ونابعا من الجديد الذي قدمته طبعتنا المحققة لأعماله الكاملة منذ خمس سنوات .

قال يوم قد اتاحت لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعماله الكاملة للمرة الأولى .

واليوم قد اتاحت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه « المصريون » لأول مرة .

واليوم تتاح لقراء العربية امكانية رصد جوانب فكره وقسمات مذهبه الاصلاحى .

وهى الأمور التي نرجو ان يكون قد حالفنا فى انجازها التوفيق .

دكتور
محمد عمارة

بطاقة حياة

(ان اللذة التي تجعل للحياة قيمة ، ليست حيازه
الذهب ، ولا شرف النسب ، ولا علو المنصب ، ولا شيئا
من الاشياء التي يجسرى وراءها الناس عادة ..
والما هي ان يكون الانسان فوه عاملة ذات اثر
حالد في العالم ..)

قاسم امين

فى هذه « البطاقة » تكثف المعالم الهامة والبارزة فى حياة قاسم أمين ، وذلك حتى تكون سطورها « شريطا » يعرض ، فى إيجاز شديد ، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها فى حياته الخاصة والعامة .. فهى ليست « ترجمة » - بالمعنى المتعارف عليه - لحياته ، وإنما هى « بطاقة » لهذه الحياة تكثف معالمها البارزة فى عدد من النقاط :

- ١ -

★ ولد قاسم أمين لأب تركى عثمانى وأم مصرية من صعيد مصر .. فوالده محمد بك أمين كان قبل مجيئه الى مصر واستقراره بهـسـا ، الـوالـى التركى على إقليم « كردستان » إحدى ولايات الدولة العثمانية فى ذلك التاريخ .

وعندما ثارت « كردستان » ضد الدولة العثمانية ، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الأستانة ، كان واليها محمد بك أمين فى الأستانة ، فظل بها ، حتى منحته الدولة ، عوضا عن أمارته ، أقطاعات فى مصر ، بإقليم « البحيرة » ، قرب مدينة « دمنهور » ، فنشأت علاقته

بمصر ، وقرر الإقامة بهيها ، وكان ذلك في بداية حكم الخديوى اسماعيل .

★ وفي مصر تزوج محمد بك أمين احدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر ، هي ابنة أحمد بك خطاب ، شقيق ابراهيم خطاب باشا .

★ وفي مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى على عهد الخديوى اسماعيل ، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة « أميرالاي » وشغل مركز قائد سلاح « المرابطين » .

★ وهناك ما يرجح ان تاريخ ميلاد قاسم أمين - وهو الابن الأكبر لهذه الأسرة - كان في أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ م (٥) . وهناك خلاف في محل ميلاده .. هل هو الاسكندرية ؟ أم ضاحية « طرة » القريبة من القاهرة ؟ .. ولعل الأم كانت تقيم بالاسكندرية ، على حين كان عمل الأب في « طرة » ، ومن هنا نشأت أسباب اللبس والاختلاف .

★ وفي الاسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته في التعليم .. فلقب دخل مدرسة « رأس التين » الابتدائية ، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الارستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء .

★ وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الاسكندرية ، واستقر بها المقام في القاهرة ،

(٥) يخطئ كل من : سر كيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ومحمد رضا كحالة في « معجم المؤلفين » و « الموسوعة العربية الميسرة » في تحديد سنة ميلاده ، فيجعلونها سنة ١٨٦٥ م .. ولكن الزركلى في « الاعلام » ، وكذلك كتاب ترجمته واصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣ م

وسكنت في حي الأرستقراطية القاهرية يومئذ ، حي
« الحلمية » .. والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية -
الخدوية - والمدارس التجهيزية في ذلك العصر تقابل
المدارس الثانوية هذه الأيام .. وفي هذه المدرسة دخل
قاسم أمين القسم الفرنسي .

★ وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة
الحقوق والادارة - وهي مدرسة عليا كانت البديل لكلية
الحقوق في غياب الجامعات - ومنها حصل على
« الليسانس » ، وهو في العشرين من عمره ، سنة
١٨٨١ م .. وكان أول خريجها في ذلك العام .
★ وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من
حلقة جمال الدين الأفغانى ومدرسته الفكرية التي
ازدهرت بمصر في ذلك التاريخ .

- ٢ -

★ اتجه قاسم أمين ، بعد تخرجه وحصوله على
الليسانس ، الى العمل بالمحاماة .. وكانت لوالده صلات
وثيقة مع المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا - الذى
تولى فيما بعد رئاسة الوزارة في ظل الاحتلال الانجليزى
لمصر - فالتحق قاسم بالعمل في مكتب مصطفى فهمى
للمحاماة .

★ ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمى
باشا للمحاماة .. ففي نفس العام - ١٨٨١ م - سافر
في بعثة دراسية الى فرنسا ، وهناك انتظم في جامعة
« مونبلييه » .. وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات
أنهى دراسته القانونية بتفوق في سنة ١٨٨٥ م .

★ واثناء مقام قاسم أمين بباريس ، حدثت بمصر أحداث الثورة العراقية التي قادها وشارك فيها عديد من تلامذة جمال الدين الأفغانى ، والحزب الوطنى الذى كونه بمصر سرا فى أواخر السبعينات .. ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الانجليزى المسلح ، واحتلال انجلترا لمصر ، ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد .

★ ثم استقر المقام بالأفغانى - بعد فك اقامته الجبرية بالهند - وكذلك بمحمد عبده - بعد نفيه من مصر - استقر بهما المقام بباريس منذ سنة ١٨٨٣ م ، وهناك أصدرتا مجلة « العروة الوثقى » لسان حال لتنظيم « العروة الوثقى » السرى الذى انتشرت فروعه من مصر الى الهند ، والذى قام أساسا لمناهضة انزحف الانجليزى على الشرق ، ولناوأة احتلالهم مصر بالذات .

وفى تلك الفترة عادت صلات قاسم أمين مع الأفغانى ومدرسته ، فكان « المترجم » الخاص بالامام محمد عبده فى باريس .

★ وفى فرنسا قرأ قاسم لمفكرى أوربا الكبار ، ومن بين الذين قراهم : نيتشة (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) وداروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) .

وفى فرنسا كذلك حاول قاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسى واقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعى . . غير أن طبيعته الشرقية الخجولة ، وسمة الانعزالية التى ميزت شخصيته لم تمكنه من الذهاب بعيدا فى هذا المضمار . .

فهناك صداقة ، بل وحب ، قد نمسا بينه وبين « سلافا » ، تلك الفتاة الفرنسية التى زاملته فى دراسته بجامعة مونبلييه . . ولكن هذه الصداقة وذلك الحب قد

ظل « رومانسيا » ، وكانت أهم آثاره تلك المشاعر النبيلة
التي بدأت تتولد في نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك
الحين ، وتلك الأحلام الوردية التي بدأت وظلت تراوده
عن قيام المرأة بدور الوحي والحافز والمساعد في حياة
الرجل . ومن ثم المجتمع ، بدلا من بقائها قيذا يشد خطو
الرجل والأمة الى الوراء . . لقد بدا يحلم بالانسانة التي
تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل ؟ ! .

كما وقف هذا الخجل الشرقي وتلك المحافظة
والانعزالية ، ان الذين تحلت بهما طبيعة قاسم أمين ، حائلا
بينه وبين الانسجام مع مرج ذلك المجتمع وما كان لرجاله
بنسائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين
الذين ذهبوا الى باريس في ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب الى باريس بعد رحلة الطهطاوى اليها
بخمسة وخمسين عاما ، والثاني كان شيخا أزهريا ،
وواعظا بالجيش ، وامام الدين للبعثة الدراسية التي
ذهبت تتعلم هناك . . ومع فارق الزمن وفارق الثقافة
والبيئة . . فقد كان الطهطاوى أكثر تقبلا وتفهما لعادات
الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ، وأقل محافظة
في تقييمه لحفصلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من
قاسم أمين ! .

فالطهطاوى ينفي أن يكون سسـفور المرأة الفرنسية
مفضيا ، بالتبعية والحتم ، الى التبذل والخروج عن
مقتضيات العفاف . . فالفرنسيون يحافظون - مثلنا -
على « العرض » ويسمونه شرفا ، بل « ويقسمون به عند
المهمات ، وإذا عاهدوا عليه ، وفوا بعهودهم ! » . . هم
مثل العرب في هذا الأمر . . « أما حدوث « اللخبطة » -
كما يقول - بالنسبة لعفة النساء ، فليس مبعثه السفور

أو الاختلاط ، بل ولا شيوع العشق في المجتمع الفرنسي ، لأن منشأ « العفة » أو « اللخبطة » إنما يعود إلى « التربية الجيدة والخسيسة » ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة ، والالتئام بين الزوجين .. ومن ثم فإن الفرنسيين « تقل فيهم دناءة النفس » فيما يتعلق بعلاقات الرجال مع النساء ! (٦) .

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسي .

أما قاسم أمين فانه كان أكثر تحفظاً في التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين ، فهو يكتب عنه فيقول : « .. يضم المجتمع الأوروبي الرجال والنساء دائماً ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات اللفة وصداقة وحب ، وهذا الاختسلاط بين الجنسين في الاجتماعات يسبغ عليها عدوية ورقة ، فالسحر الذي تشيعه المرأة في كل مكان توجد فيه ، شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور . وفي مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائماً بالمرح ، وغالباً ما يتودد للغير ، ويخرج في النهاية يهفهم القلب بالرضا ! » .

ثم يستطرد متحدثاً عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول : « وقد أتبع لى تقييم هذا السحر الفسريد ، وكان شأنى شأن الآخرين في الأحساس بقدره ، وخاصة في وجود امرأة تجمع حصافة والفكر إلى جمال الجسد . وقد رمت بى طبيعتى الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة غير أن هذا لم يقلل من حبنى لهذه اللقاءات الشيقة التى يهتم فيها الجميع بخلق جو

(٦) « الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » ، ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

البهجة والاستمتاع به أ . . » (٧) .

★ وفي صيف سنة ١٨٨٥ م عاد قاسم أمين الى القاهرة ، وذلك بعد ان عمل هناك مع استاذة « لرنود » - عقب التخرج - عدة شهور .

- ٣ -

★ ويوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثاني والعشرين - أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ م - صدر قرار تعيينه بالقضاء ، في النيابة المختلطة . . فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وخاصة ما يتعلق منه بآليات جدارة المصري ونديته للأوروبي في تولى الوظائف العسامة والنهوض بأعبائها . . وبوجه أخص في حقل مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بمصر ، أجنب ومصريين على حد سواء .

★ وبعد شهور من عودة قاسم الى أرض الوطن توفي والده محمد بك أمين .

★ وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقل من النيابة المختلطة الى قسم قضايا الحكومة .

★ وفي يونيو سنة ١٨٨٩ م رقي الى منصب رئيس نيابة « بني سويف » ، بصعيد مصر . . وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وآراءه في فلسفة العقاب ودوره في الإصلاح الاجتماعي . . فلقد وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الادارة الحكومية ، ظلما ، في سجن « بني سويف » فك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم ! .

(٧) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ، ج ١ ص ٢٩٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

★ وفي سنة ١٨٩١ م انتقل رئيسا لنيابة « طنطا » .. حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف ازاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه اليه الوطنية والوفاء لمدرسة الأفغانى التى انتسب الى فكرها ومنح رجالها الحب والاعجاب منذ عهد صباه ..

فلقد وقع عبد الله نديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦ م) - أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها - فى قبضة الشرطة، وذلك بعد اختفاء أسطورى دام تسع سنوات .. وجيء به الى رئيس النيابة قاسم أمين ؟ .. فأكرم لقاءه ، واعطاه مالا من عنده ، وهيا له فى محبسه أقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة .. ثم قرر أن يقوم بالسعى لدى المسئولين فى العاصمة كي يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه ، فسافر الى القاهرة يلتمس له العفو .. وبعد حملة صحفية ، تبنت هذا المطلب ، قررت الوزارة العفو عن عبد الله نديم مع إبعاده الى الشام فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ م ، بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيها ! . ونفس الصنيع كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عليهم فى المظاهرات ! بل كان يخفى بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات ! .

★ وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ م عين قاسم أمين نائب قاض فى محكمة الاستئناف .. ثم رقى بعد عامين من ذلك التاريخ الى منصب مستشار ، وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره .

★ ولقد عرفت عنه طوال مدة عمله بالقضاء دعوته الى جعل القضاء المصرى والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضى والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر - باستثناء أحوالهم الشخصية - وذلك حتى تزول

الأزدواجية القضائية التي فرضتها على مصر امتيازات
الأجانب ونفوذ الاستعمار .

★ وخارج نطاق العمل القضائي امتد نشاط قاسم
أمين .. فكتب في صحيفة « المؤيد » عددا من المقالات
دون توقيع .. وأصدر كتابه « المصريون » - بالفرنسية
- سنة ١٨٩٤ م .. يرد به هجوم الدوق الفرنسي
« داركور » على مصر والمصريين .. كما أصدر « تحرير
المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، و « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م .
كذلك شارك في نشاط « الجمعية الخيرية الإسلامية » ،
وكانت تنشئ المدارس للفقراء ، وتنهض بضروب من
الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ م تولى سكرتارية الاجتماع
الذي عقد بمنزل سعد زغلول باشا ، والذي صدر عنه
البيان الشهير الموجه للأمة يدعوها للاسهام في انشاء
الجامعة الأهلية المصرية .. وعندما تخلى سعد زغلول
عن رئاسة اللجنة التي نيط بها أمر الدعوة لانشاء
الجامعة ، بعد تعيينه ناظرا - (وزيرا) - للمعارف ،
تولى رئاسة اللجنة بدلا منه قاسم أمين .. وكانت آخر
أعماله العامة ذلك الخطاب الذي ألقاه « بالمنوفية » ،
بمنزل حسن زايد ، عن الجامعة والتعليم الجامعي المرجو
لمصر والمصريين .. فلقد ألقى خطابه في ١٥ أبريل سنة
١٩٠٨ م ، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك التاريخ بأسبوع ،
أي في ليلة ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ م .. وكانت مصر
تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التي نهض في سبيل
قيامها بدور عظيم .

- ٤ -

★ أما منزل قاسم أمين وحياته الأسرية فلقد كانا

متسقين مع مزاجه الهادئ وروحه الفناثة واحساسه الرقيق .. فهو قد تزوج فى سنة ١٨٩٤ م من زينب ، ابنة امير البحر التركى امين توفيق .. وكان صديقا لوالد قاسم امين .. وكانت قد اشرفت على تربية زوجته هذه ، فى طفولتها وصباها ، مربية انجليزية .. وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يوميا ، وبشكل منتظم من الخامسة الى السابعة مساء ! .

ولقد اتجب بنتيه : زينب ، التى احضر لها مربية فرنسية .. وجلسن ، التى احضر لها مربية انجليزية .
★ أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف .. ومع كته كان يقضى ، يوميا وبانتظام ثلاث ساعات ، من السابعة حتى العاشرة مساء ! .

★ أما اجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا ، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك .

هكذا كانت حياة قاسم امين ، وكانت شخصيته .. فنان وأديب نحا نحو الاصلاح الاجتماعى .. ومفكر يحترم رأيه ، ويدافع عنه باصرار ، ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته الى تحريرها - بدءا من تحريم دخوله الى قصر الخديوى بعد اصدار « تحرير المرأة » ، الى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التى كملت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب .. الى سعى فئات وافراد من العامة والبلهاء والمتعصبين الى ازعاج حياته الأسرية الهادئة ، ظنا منهم ان دعوته الى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب الى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط ! .

ومع كل ذلك ، ومثله كثير ، هاش قاسم عمره القصير
- بمقاييس السنوات - بروح الفنسان ، فأعطاه عمقا
ومنحه أبعادا تخطت به حدود الزمن والسنوات .
وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل : لقد كانت
« روح قاسم أمين روح أديب .. كانت الروح العصبية
الحساسة الشائرة ، التي لا تعرف الطمأنينة ، ولا تستريح
الى السكون ، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف
الانزواء في كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها
وتستبدل بكنها ما في حياة الكون وحركته من نشاط
وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة
الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه
وحيا والهاما أكثر مما تؤدي المباحث الجافة منطقا وجدلا .
وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال
الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته
غيره لهذا المتاع ، وذلك لا يؤتاه الا رجل فن جميل لا يقف
عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معاني
هذه النعم ! » (٨) .

هكذا كان قاسم أمين - يرحمه الله .

(٨) « تراجم مصرية وغربية » ص ١٥٢ .

قسمات المنهج الاجتماعي

(ان اهم عامل له اثر في حال الامة هو : حالتها الاقتصادية .. وهي لا تتغير بإرادة شخص أو جماعة شخص ، أو اصدار قانون أو مائة قانون .. بل بتغيير الاسباب التي اوجدتها ..

ولقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، وعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء ، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع فريد من الجماعية ، واشتراكية سامية سبقت أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام .

ان النوع الانساني ، في كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه ، وأيضا بعظمته وزهوه .. والحركة المستمرة الى جهة الترقى هي قانون الحياة الانسانية .. وان يقف ماضينا ولا حاضرا حائلا بيننا وبين التقدم حسب هذا القانون الذي يسود الكون كله ..)

قاسم أمين

من المعالم الهامة والايجابية فى فكر قاسم أمين وآثاره ان روح الفنان والأديب التى ملكت عليه كيانه ، وحددت رؤيته لكثير من القضايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعى الذى التزمه الى حد كبير فى درس وعلاج قضايا الإصلاح التى عرض لها .. بل اننا نستطيع أن نقول : انه كان من أبرز كتابنا ومصلحيننا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعى فى البحث وأهميته فى قيادة الباحث والمفكر الى أسلم النتائج وأصدق المقولات .

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظرى ومنمق وبراق ، بصرف النظر عن الواقع الذى يطبقون اصلاحاتهم فيه .. وينبئه الى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق ، ثم يدعو الى أن يكون الفكر وخطط الإصلاح مدروسة فى ضوء امكانيات الواقع الذى نرجو له انتغير والتطوير .. يقول :

« نحن نفهم ان رجلا يعيش فى عالم الخيال ، يكتب فى مكتبته على ورقة : ان ليس على النساء الا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . »

نحن نفهم ذلك ، لأن الورق يتحمل كل شيء ١ .
وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات
وبختبرها بقياسها الى الواقع ، فانه اذا اراد مثلاً أن
يحصل لنفسه رأياً في : ما هي حقوق النساء التي نحن
بصددها ؟ يجب عليه :

أولاً : أن يسوق نظره الى الوقائع التي تمر امامه ،
أعني أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها في ذهنه
منفردة معمولاً بها في مدينة ثم في اقليم ... ذلك عمل
ليس بالسهل ، لأنه يحتاج الى معلومات جمة ومشاهدات
كثيرة .

فاذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم في المسألة
حكماً قاطعاً ، لأنه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية ،
فلا تكون نتائجها الا تقريبية ، لذلك تراه دائماً على طريق
البحث ، لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضعه
قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب
ما يقتضيه الحال ويظهره العمل « (٩) .

فهو في هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج
الاجتماعي في البحث والدراسة ..

- ١ - فلا بد من دراسة الواقع ، قبل التخطيط .
- ٢ - ولا بد من أن يكون الواقع ماثلاً في الذهن ونحن
نضع التخطيط ، ماثلاً بمعطياته القائمة ، وماثلاً متخيلاً
في حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه .
- ٣ - ولا بد وأن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطاً
بالواقع ككل ، وبدءاً من الجزء وانتهاء بالكل .
- ٤ - ولا بد من اختبار مدى صدق المقدمات ، لأنها

(٩) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

طنية وفروض لا تشر المطلق والنهسائي ، بل النسبي والتقريبى .

هـ - ولذلك كله فلا بد من ان يكون البحث عملا مستمرا ، كى نضع فى اعتبارنا المعطيات الجديدة التى ثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق ، وهى المعطيات التى تسهم فى اختبار صدق المقدمات ، وتحدث التعديلات فى النتائج التى يصل اليها الباحثون . . فنسبية المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن « لا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل ! » .

وقاسم أمين لم يحدد هذا المنهج لأنه نقله عن الفكر الأوروبى الذى درسه واستفاد منه . . لم يقف عند حدود الفهم والنقل ، بل لقد طبق هذا المنهج فى بحثه لكل القضايا الاصلاحية التى عرض لها .

فهو عندما قرأ هجوم « دوق داركور » على مصر والمصريين ، انفعل غضبا حتى أصابته الحمى ! ولم يجد علاجاً لمرضه الا أن يرد هجوم الدوق . . ولكنه خلع انفعالاته ، بل وجاهد للحد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الامكان - وان كان لم ينجح . . وما كان له ولا لغيره أن ينجح فى طلب ما هو مستحيل ! لكنه حاول وبلغ قدرا من النجاح حققته محاولته الواعية هذه . . وعبر عن منهجه الذى اهتم بدراسة الواقع ، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع ، فقال : « لقد أطلت التأمل فى أبناء وطنى ، بل لقد بذلت جهدا أكبر مما يبذله الأجنبى فى دراستهم والتعرف عليهم ، واعتقد اننى نجحت فى أن اكتشف أعماق وجدانهم » (١٠) .

(١٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٤٢ .

ووعى قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحسين معطياته في التخطيط والتنظيم هو الذى جعله يفرق بين الأبحاث الجادة التى تستحق الاحترام وبين الانطباعات التى يكتبها عن مصر أولئك « السياح » العابرون للسبيل ، والباحثون - الى جانب المتعة - عن القصص الغريب والنبأ العجيب ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع فى المجتمع الذى عنه يكتبون . . فيصف هذا اللون من التأليف بقوله : « اننى أعرف ، بخبرتى ، ذلك المنهج الذى يتبعه الأوروبيون فى تأليف كتبهم . فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم التراجمة من مواد ، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب ! » (١١) .

وهو فى نقده لكتاب « دوق داركور » عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم فى هذا اللون من ألوان التأليف ، فيقول : « اننى أفهم تمام الفهم دوق داركور . لقد أمضى الشتاء فى رحلة لم تنقصها المتعة ! ، وطالع عددا من قصص كتاب الرحلات ، مهتما أكثر بمن أساءوا فى كتاباتهم الى الاسلام - الذى يكرهه من أعماق قلبه - ورأى من شرفة فندق « نيو أوتيل » ، وعبر نافذة السيارة التى كان يتجول بها ، مجموعات من السكان الفقراء ذوى المظهر البسيط ، وبهذه الطريقة ألف كتابه ؟ ! » (١٢) .

فهذا المنهج الذى يهمل دراسة الواقع هو منهج مرفوض ، ونتائجه مرفوضة ، من قاسم أمين .
وفى الأفكار الإصلاحية التى تمنى قاسم أمين تطبيقها

(١١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٤ .

(١٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٥ .

فى عالم الأءب العربى نطالع كءلك أيمانء بهءا المنهء
الأءماعى ، مطبقا على هءا الحقل .. فهو يءعو إلى
العمل على اعاءة المكانة المفقوءة إلى هءا الأءب .. مكانته
القءىمة التى كانت له عصر ازءهارة وازءهار حضارة
أهله ، وءلك بواسطة اصلاءىن أساسىىن هما :

١ - أن يصبء هءا الأءب انعكاسا للتغىرات التى
يشهءها الواقع المعاصر .

٢ - وأن يطوع هءا الأءب لما ءء فى المءءماعاء الءءىءة
من عاءاء تعبرىة لم يعرفها الأسلاف ، لأء وأن تفرض
أسالىب ءءىءة للمعالءاء .

وهو يعبر عن أفكاره تلك فىقول : « أن الأمر فى ءاءة
إلى عبقرى سسءطىع بنشأطه ومواهبه أن يعىء للأءب
مكانته التى كانت له قءىما فى المءءماعاء الأسلامىة ،
فىءءله يعكس هءه التغىراء التى ينبض بها وضعنا
الءالى ، ويطوعه لعاءاء ءءىءة » (١٣) .

بل أن اهءمام قاسم أمىن - المنهءى - بالواقع لا يقف
عءء هءه الءءوء ، فهو يءعو - مثلا فى مىءان التربىة -
أن نءطى ءءوء الفهم النظرى للواقع ، ونمارس القيم
ممارسة عملىة .. يءعو إلى معرفة تكون ثمرة للءبرة
والممارسة ، ولا يءفى أصحابها بالءءصىل والاستىعاب
.. فىءءء عن هءه القضبة ، من ءلال نقءه للواقع
السائء فى مىءان التربىة عءء المصرىىن فىقول :

« ومن الأسف أن المصرى لا يزال يظن أن تربىة الطفل
عبارة عن وضعه فى المءرسة ، وأنه مءى علم ولءه ما كان
ىءهله من العلوم فقد أءسن تربىته وقام بما ىءب علیه ،

(١٣) المصدر السابق . ء ١ ص ٣٣٠ .

مع أن التعليم هو في الحقيقة أقل فروع التربية شأنًا وفائدة .

نعم . . انه قد يكون من النافع ان الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة ، والفلسفة اذا شئت . ولو انى اعتقد ان التعليم النظرى لا يفيد الفلام فائدة محسوسة ، خصوصا اذا كان فى السن الذى يتلقى فيه العلوم العالية .

ولكن يجب على الآباء ان يعلموا ان التعليم وحده لا يفيد شيئا اذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية . . . وذلك بتعويد الطفل لا على ان يفهم ان هذا الطيب طيبا وذاك الخبيث خبيثا ، بل على ان يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع لأن ادراك الحسن حسنا والقبيح قبيحا امر سهل . . فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشىء المهم فى فن التربية ، ولكن كله ينحصر فى اكتشاف واظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فىنا ، أو غرسها فى نفوسنا ، وتقويتها واحيائها حتى يمسك فى النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدا . . والتربية بهذا المعنى لا يمكن ان تكتسب فى المدارس والمكتاتب والقراءة والحفظ ، بل يجب ممارستها ! « (١٤) .

ولو ان قسمات المنهج الاجتماعى لدى قاسم أمين وقفت عند هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافيا فى انتزاع الاعجاب به والاكبار له ، خصوصا اذا نحن راعينا بصره وظروف مجتمعه ، ولكنه لم يقف بقسمات هذا المنهج عند تلك الحدود ، وذلك لسبب بسيط وعميق ،

(١٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

هو أن ذلك المنهج الاجتماعي ، الذي اتخذنا عنه ، والذي آمن به قاسم أمين وطبقه في دراسته لقضايا الإصلاح التي عرض لها .. أن هذا المنهج كان ثمرة لايمانه العلمي بأن الكون بأسره إنما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لا تختلف تمراتها .. فهناك وحدة في قوانين الكون ونظمه .. وهناك وحدة في قوانين تطور الإنسان عبر كل العصور وفي كل البيئات وهناك وحدة في قوانين تطور المجتمعات .

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية في دائرة التطور البشري العام ، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثير بنهضات الآخرين بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصى على قبول القوانين العامة والوحدة لتطور الكون والمجتمع والإنسان .

وقاسم أمين لا يطرح هذه القضية كأمر فكري ونظري مجرد ، وإنما ينبه إلى أن وعيها هو أمر ضروري لنا ونحن نعالج كتابة التاريخ وتفسير أحداثه ، وأيضا ونحن نعالج قضايا الإنسان المعاصر وإصلاح عيوب مجتمعاته ، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فإن للظواهر التاريخية والاجتماعية والإنسانية قوانينها التي تحكمها ، والتي لا بد من وعيها ، لمن يتصدى لهذه الظواهر

بالدراسة والعلاج . يقول ، بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح .. ذلك « أن المؤرخ يشرح أطوار أمة في زمن من عمرها ، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها ، وحالتها الاقتصادية والسياسية ، داخلا وخارجا ، وما هي عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون ، ويبين من خلال ذلك

ما طرأ عليها من الحوادث المهمة .. ولا يعتنى إلا قليلاً
بسرود الحوادث - كما يفعله مؤرخونا - وبهذه الطريقة
صار التاريخ من أهم العلوم التي موضوعها الانسان
الاجتماعى .

هكذا يحدد المنهج الاجتماعى فى كتابة التاريخ ..
فليست الحوادث والوقائع هى الأسباب ، بل هى
المسببات ، والقاعدة التى تثمر ما نسميه « تاريخاً » هى
الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات
والتقاليد ووسائل المعيشة .. الخ .. الخ .. أما كتابة
التاريخ كركام من الأحداث - على عادة مؤرخينا ، كما
يقول - فهو منهج خاطئ يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعى
كواحد « من أهم العلوم التى موضوعها الانسان
الاجتماعى ! » .

وكما يجب ذلك على المؤرخ ، يجب أيضاً على الساسة
والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة .. « فكما
يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال
العمومية فى الحال ، فيدرسون زمانهم درساً تاماً ،
ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم
وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم
عليه بكيفية لا تقبل الشك .

ان هذه الأمور انما هى العلل التى أنتجت تلك الحالة ،
وان تغييرها لا يكون بالصدفة ، وانما هو بتغيير يحدث
فى تلك العوامل المؤثرة ، اذ السبب والمسبب دائماً
متلازمان ، عقلاً وعادة ، متى وجد أحدهما وجد الآخر
حتماً . وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله ،
فليس فى الكون شئ وجد بلا موجد وسبب ، واضح
أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل .

وبعد هذا التأكد على أن تطور المجتمعات وتغيرها إنما تحكمه قوانين تتطلب تغير الأسباب والقواعد المتحكمة إذا شئنا تغير المسببات والأبنية العلوية والتابعة - ينبه قاسم أمين الى ان خفاء هذا القانون في الظواهر الانسانية لا يعنى تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وان تميزت هذه الظواهر بأسباب لا تجعله واضحا وجليا كما هو حاله في ظواهر الطبيعة .

« ان هذا القانون الالهى وان كان لا يظهر بوضوح تام في علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر في العلوم الطبيعية :

أولا : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الانسانى هى ، فى الحقيقة ، فى أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .
وثانيا : لأن الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد ، بل يشترك فى مقدماتها عدة أسباب متنوعة .
وثالثا : لأنها تظهر دائما انها تحت ارادتنا ، وان لنا سلطة فى ايجادها وتعديلها .

ولكن يكون من الخطأ الجسيم ان نعتقد ان الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره » .
ثم يستطرد ليؤكد على ان هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله فى قرآنه ، فيذكر أن آية (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١٥) هى أساس لذلك القانون ، وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم فى هذه القضية ، كمسا تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئوننا رجال اكفاء يخدمونها بعجد ويفهمونها باصابة وادراك ! « (١٦) .

(١٥) الرعد : ١١ .

(١٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٩ .

ولقد كان طبيعيا أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم
قانون علمي ، ليس في نطاق الظواهر الطبيعية فقط كما
اشتهر عند تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) في ذلك
العصر ، بل وفي الظواهر الخاصة بالحياة الانسانية ، ذلك
« ان هذا التغير والتحول ، بل الحركة المستمرة الى جهة
الترقى ، هي قانون الحياة الانسانية ، التي خلقها الله
ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القانون خرج
الإنسان من المعيشة البهيمية ، التي لا يزال عليها اخواننا
المتوحشون من سكان افريقيا وأمريكا ، ممن وصفهم
العلماء بأنهم قرود متمدنة عندما شاهدوا ان المسافة بينهم
وبين الحيوانات البهم اقل من المسافة التي بينهم وبين
اناسي أمة متمدنة ! » (١٧) .

ولقد استفاد قاسم أمين من إيمانه بقانون التطور ،
ووحده وفاعليته الأزلية الأبدية ، فاستخدم حقائقه
أسلحة في الصراع ضد فكرية القرب الاستعماري الذي
حاول ، في سبيل السيطرة علينا والاستغلال لنا ، ان
يوهمنا ان قانون التطور والتقدم والارتقاء ، في
المجتمعات ، انما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات
الفربية المتقدمة ، أما نحن الشرقيين فاننا ومجتمعاتنا
خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون ! ..

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن « ان تاريخ
تأسيس الدول في العالم موضوع تأملات متصلة ، وهو
يؤكد حقا ان النوع الانساني ، في كل مكان ، هو نفسه ،
بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضا بعظمته وزهوه ،
والقانون الأبدى الذي يحول المادة يحول أيضا البشر

(١٧) المصدر السابق - ج ١ ص ٢٠٩ .

والانظمة ، ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذى لا مهرب منه ، والذى يحكم حركة التقدم البشرى .
والانسانية تعبر عن نفسها فى كل مكان بنفس الطريقة ، وتتبع نفس المسيرة .

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية ، وستنتهى الى الحرية . غير انها فيما بين هاتين الفترتين مقضى عليها أن تعاني محنة الاستبداد ، الذى يبدو أنه ضرورى لاحتبارها . ما أسعد الدول التى يكتب لها ، بعد هذه المحنة ، البقاء ! « (١٨) .

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكرى الغرب الاستعماريين وحدهم ، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التى تعادى التطور على وهم أن بالامكان إيقاف قانونه عن العمل ، والعودة الى الماضى أو الحفاظ على بقايا آثاره التى تشد المجتمعات الشرقية الى الوراء . .

وهو فى سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يمضى متسائلا ليعول : « . . انى - بكل حسن نية - لا أرى لماذا يقف ماضينا - كما أرى ، أو حاضرا ، كما يراه دوق داركور - مهما كان سيئا ، حائلا بيننا وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال ، وهو القانون الذى يسود حركة الكون كله ؟! » (١٩) .

وكما أثمر إيمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعى تلك الثمرة التى جعلته يرى الأسباب فى علاقاتها بالمسببات ، والتى جعلته يشير الى السبيل العلمية المثلى فى دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والانسان ، فهى أيضا قد أثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات التى تحدث فى الأبنية

(١٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٧ .

(١٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٦ .

العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على أحداث تطوّر حقيقى فى هذه الظواهر .. فتغيير الواقع الاجتماعى هو الذى يحدث التغيير الحقيقى ، وليس تغيير القوانين والفيادات هو الفاعل الحقيقى فى تلك المجتمعات .. وعن هذه الحقيقة الهامة يقول : « ان حالة الأمة ، فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ، ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الأمة .. والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول ، فهى لا تتغير أبداً الا بحال آخر ، بمعنى ان ارادة شخص أو مائة شخص أو اصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس ! » (٢٠) .

تلك كانت درجة ايمان قاسم أمين بأهمية القاعدة المادية للظاهرة الاجتماعية ، وكيف ان تغييرها هو السبيل الحقيقى لاحداث التغييرات الحقيقية والتطورات ذات القيمة التى يسعى الانسان لانجازها كى يتطور بمجتمعه وواقعه الى الامام .

بل لقد خطا قاسم أمين فى هذا السبيل ، الى الامام ، خطوات أكثر تحديداً وأشد عمقا وأنضج فى باب الايمان بالمنهج الاجتماعى فى البحث والدرس والاصلاح .. فوجدناه يركز على أهمية العامل الاقتصادى والأسباب الاقتصادية ، ويبرز دورها المتميز فى تحديد الصورة العامة للظاهرة ، ويؤكد على فعاليتها فى التطور اذا ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر فى كتابة مقالاته التى نشرها فى «المؤيد»

(٢٠) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٠ .

حدد منهجه ، ونبه على أن عينه ستكون أكثر تركيزاً على العوامل المؤثرة في المجتمع ، بهدف القضاء الضوء على السبل الحقيقية للتغيير المنشود . . وبصدد حديثه عن منهجه هذا كتب يقول : « . . شرعت في هذا العمل . . باحثاً عن حالتنا الراهنة ، لا من جهة السياسة ، فاني لست مشتغلاً بها الا من حيث كوني مصرياً أحب الوقوف على الحوادث التي تجرى في وطني - وللسياسة الآن قائمون ، والحمد لله ، بخدماتها واستخدامها أكثر مما يحتاج اليه الحال ! ، بل من الجهات الأخرى ، كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين . . » (٢١) .

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و « المعيشة الاقتصادية » قبل عوامل : التربية ، والعوائد ، والدين .

وفي موطن آخر يزيد هذا الموقف حسماً ووضوحاً عندما يقول : « ان أهم عامل له أثر في حال الأمة هي حالتها الاقتصادية . . . ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف يشاء » (٢٢) .

وهو هنا يشير - بعد تقريره ان الحالة الاقتصادية هي أهم العوامل تأثيراً في حالة الأمة والمجتمع - يشير الى ان لهذا العامل قوانينه العلمية التي لا بد من الوعي بها ، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الامكان .

فاذا انتقل للحديث عن المראה وجدناه ينبه الى دور العامل الاقتصادي في أوضاعها الراهنة ، ان سلماً وان إيجاباً .

(٢١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩١ .

(٢٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٦٩ .

فللعامل الاقتصادي الدور الأغلب في انحراف المرأة الخلقى وتفريطها في عفتها وسلوكها المسلك المشين ، ولذلك فانه يمكن أن يقال : « اتنا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبدل نفسها في ظلام الليل لأول طالب - وما أكبر هذه المذلة على المرأة - لوجدناه في الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة .. » (٢٣) .

كما يبصر العلاقة بين الوضع الاقتصادي لطبقة من الطبقات وموقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلاً .. فالتعدد لا ينتشر في الأوساط الريفية التي لا ينتج أهلها ما يسد رمقهم ، كما ينتشر في أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهل والتخلف والبحث عن اللذات .. يقول قاسم أمين :

« وأستطيع انؤكد ان حالات تعدد الزوجات نادرة في مصر . ونتحدث عن الريف في البداية ، فالفلاح متمسك بالزوجة الواحدة ، بشكل جذري ، وسبب هذا انه يكسب ما يكاد ينقله من الموت جوعاً . أما في المدن فقد بقي بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة ! .. » (٢٤) .

فللتعدد ، وجوداً وعدماً ، قلة وكثرة ، علاقة وثيقة بالوضع الاقتصادي لكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات .



هكذا يتكشف لنا . قاسم أمين عن مفكر ومصلح امتاز

(٢٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢١ .

(٢٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٨ .

بالإيمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعي الذي أعانه على دراسة العضلات التي عرض لها بالدرس والإصلاح .

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق وذهب في ذلك مذاهب تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة .

وهو قد وعى انقوانين التي تحكم الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية أو إنسانية واستخدم وعيه في تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفي رد سهام الأعداء الذين كانوا يناصرون وطنه وأمتة العدا .

وهو ، أخيراً ، قد أدرك أهمية المساعدة المادية للمجتمع وحالته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة في أية عملية للتغيير أو التطوير يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات إلى الأمام .

المجتمع الذى يتشربه

(ان التربية هي : راس مال لا يقنى ! ..
وحياة كل أمة مرتبطة بماليتها .. والتجسار
هي علم الثروة الحقيقي ... وليس الغرض أن يجمع
الإنسان المال حبا في المال ، بل المراد أن يكون لديه
طموح شريف الى العلاء .
والاستبداد أصل كل فساد في الاخلاق ... والحرية
الحقيقية تحدث ابداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ،
وترويج كل فكر ...
فكم من الزمن يمر علينا قبل ان نبلغ هذه الدرجة
من الحرية ؟ !)

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من المصلحين البارزين فى مدرسة الاستنارة واليقظة والتنوير فى مصر والشرق العربى والاسلامى ، تلك المدرسة التى تكونت اول ما تكونت بمصر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ورائدها هو رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) .

وكان الموقف الاجتماعى لهذه المدرسة يستهدف التطور بالمجتمع من مرحلة الاقطاع ، والانتقال به الى المرحلة البورجوازية ، بكل ما تعنى هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين فى ذلك بما للاسلام من مواقف ومبادئ تنتصر للعقل وترفض الكهنوت والسلطة الدينية - وبكل ما تعنى هذه المرحلة البورجوازية كذلك من اعلاء لشأن « العمل » ونقد لقيم التبطل التى تميزت بها مجتمعات الاقطاع وكبار الملاك ، والدعوة الى اشاعة التنافس والطموح ، وتنبيه الناس الى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات ، وخوض غمار المنافسة والمخاطرة فى هذه الميادين ضد أوروبا التى كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية ، سواء فى صورة شركات وجاليات ومغامرين ، او فى ظل جيوش وسلطات احتلال

تحمى وتقنن ذلك النهب والاستنزاف .. (٢٥) .
ومن هنا فأننا نجد لدى مصلحي مدرسة التنوير
هذه ، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعى ، قاسما
مشتركا يتمثل فى أمرين محددين :
أولهما : نقد بقايا المجتمع الاقطاعى القائم ، وتسفيه
قيمه ، والازراء على الاعراف التى سادت مجتمعات كبار
الملاك .. وكان كثير منهم بمصر يومئذ من المتمصرين
والشراكسة والأتراك .

وثانيهما : الدعوة الى احلال قيم المجتمع البورجوازى
— وكانت هى الأكثر تقدما بالنسبة لمجتمع الاقطاع وكبار
الملاك — الدعوة الى احلالها كبديل لقيم المجتمع القديم .
ونحن اذا نظرنا فى الفكر الاجتماعى لقاسم أمين ، وبحسنا
عن نوعية المجتمع الذى بشر به مواطنيه ، وجدناه يدعو
الى هذين الأمرين المحددين بوضوح وجلاء .

فهو يوجه نقده الى المجتمع القائم ، ويعيب عليه
ضعف طبقة البورجوازية ، التجارية والصناعية ، فيه
.. ويسفه من الهالات التى يحيط بهذا هذا المجتمع فئة
الموظفين ، لأنهم بلا سند اقتصادى يضمن لهم لقمة العيش
اذا ما تأخرت عنهم المرتبات ! ومن ثم فلا دور لهم فى
الانتاج والتطور الاقتصادى للمجتمع الذى يخدمون
حكومته .. ويوجه سهامه الى الوضع المزرى لطبقة
كبار الملاك الذين أغرقوا أنفسهم فى التبطل وكبلاوا
طاقاتهم بالسفه والتبذير بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية
فى الديون .

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه فيقول :

(٢٥) انظر الفصل الذى كتبناه عن الفكر الاجتماعى لرفاعة الطهطاوى،
فى تقديمنا لأعماله الكاملة ج ١ ص ١٧٥ - ٢٠٠ .

« أن مصر بلدة فقيرة جدا ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون ، يعيشون بالشيء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا ، والنصف الآخر ينقسم الى قسمين :

الأول : يشمل التجار والصناع .. وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : انه مالى ملى ! .

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات - وهم الطبقة المتظاهرة بحانة اليسار ، نوعا ما ، فى معيشتهم ، ولكن أغلبهم أن حيل بينهم وبين مرتبهم شهرا واحدا وقعوا فى العسرة والضنك الشديد ! .

أما أرباب الأعيان ، من الدوات والعمد والمشائخ والأعيان فى البلاد ، فحالهم كحال « رابيل » ، المؤلف الفرنساوى المشهور ، اذ قال فى وصيته : « انى لا أملك شيئا ، وعلى ديون كثيرة ، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء » !! والبلد التى يكون أهلها فقراء ، مثلنا ، لا يمكنها ، ما دام فقرها ، أن تؤمل خيرا فى المستقبل ، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بمالياتها ، اذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم شيء مطلقا ! » . (٢٦) .

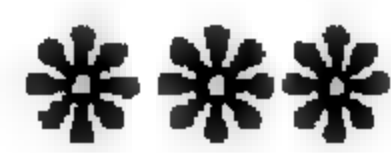
وفى موطن آخر يسلط هجومه على قيم الكسل والتبطل والزهو والتواكل التى تسود المجتمع القديم ، ويعلل انتشار هذه القيم المناهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسى الذى قهر ملكات الناس وكره اليهم استثمار طاقاتهم عندما أيقنوا ان المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهاد ، وساعد الاستبداد فى ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضار والمعوق لتطور المجتمعات .

يتحدث قاسم أمين فى ذلك عندما يعرض لـمكان

الانسان المصرى من « العمل » و « انطموح » فيقول :
« ان المصرى طماع - (طموح) - كفيه ، وليس عنده
من الزهد ما ليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل
ولا ينشط لعمل فيه رزقه . فهو اذن يحب ان تمطره
السما ذهابا وان تنبت الارض فضة ، يحب ان يكون
اغنى الناس ، على شرط ان لا يتعب جسمه ولا يجهد
فكره ! .. والسبب فى سقوطه هذا امران :

الأول : سوء معاملة الحكومات السابقة له ، فانها
بفدورها وظلمها اضعفت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر
الابتكارات الشخصية ، فقد المصريون بذلك ملكة الاقدام
على العمل والمخاطرة فى الشغل .

والثانى : سوء تربيته ، فان عدم تشغيل الجسم
وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات ، بل واياما ، على
المقاعد والمراتب والمصاطب ، وعدم التعود على استعمال
وظيفة المخ ، وترك النظر فى الأشياء ، مع شدة التمسك
بالأقوال والأمثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم ، وتكرار
سماع القصص والأحاديث التى وضعت فى الأصل لتسلية
الفقر وازالة الأحزان عن الضعفاء قليلي الحول والحيلة
.. ولكن غشيتنا جهالتنا ، والفيناها قد اتفقت مع
كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها ، وحشيناها
ووشيناها ، حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا ! « (٢٧) .



وبدلا من هذه القيم التى كانت لها السيادة والانتشار
فى ذلك المجتمع الاقطاعى ، بشر قاسم ، كفيه من مصلحى
مدرسة التنوير ، بقيم المجتمع الجديد .. قهاجم الزهد
والقناعة والرضا بالقليل ، ودعا الى الطموح وطلب المزيد

(٢٧) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

والمزيد مما هو مشروع . . وقال وكتب مؤثدا ان « من البسديهي ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف ، لانه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان التنافس في المزيد . فعلى الانسان ان يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين حالته المادية والأدبية ، فان كان يكسب في اليوم قرشين ، فعليه ان يجتهد في توصيلها الى خمسة ، ثم الى عشرة ، وهكذا . . .

وليس الغرض . . من تحسين الحال ، على هذه الطريقة ، ان يجمع الانسان المال حبا في المال ، بل المراد ان يكون عند كل واحد طموح شريف الى العلاء ، ولا يكون له ذلك الا اذا سعى في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له ان يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية في ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياسة ، وأن يأتي من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله . . » (٢٨) .

وفي مواجهة القيم التي تمجد التبطل والكسل و « الراحة » ، يبشر قاسم أمين « بالعمل » المنتج ، وذلك من خلال تقده لتكالب الناس على « العمل » كموظفين في الجهاز الحكومي ، مع انه « لو تذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان في طائفة الموظفين الا بنسبة قليلة جدا ، وان كل انسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه ، وان يعلو على أكبر مالك في الدنيا بفضيلته وعلمه . لما رأى ورأوا في انفصاله من خدمة الحكومة الا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئا ! . . » (٢٩) .

(٢٨) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

والتعليم . . يعلم فاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تطلب لذاتها . فان له دورا في تنمية الحياة . . بل لقد تحدث عنه على انه « استثمار » رابح بمعايير « الاستثمارات » والأرباح . . ومن هنا كان « كل ما يصرف في سبيل التعليم والتربية . كإدراسه ومطالعة الكتب وأنجراند والسياحه ، لازم . . انه لا يجوز مطلقا الاستغناء عن صرف الأموال في هذا السبيل ، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذي هو قوام الحياة . . لأن التربية هي رأس مال لا يفنى . أما المال فمما أقرب ضياعه ، وخصوصا في يد القبي الجاهل ! » (٣٠) .



وكما سبقت اشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الاقطاعي تعلو من قدر كبار الملاك بالوراثة ، والأثرياء بالوراثة ، وترفع شأنهم الأدبي والاجتماعي فوق شأن التجار والبورجوازية التجارية التي يعمل أهلها بأيديهم وينمون ثرواتهم وثروة المجتمع . . ولذلك وجدنا فاسم أمين يصفه من فكر كبار الملاك ويسخر من « شرفهم ونبلهم » المزعومين ، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التي كانت في دور النشأة والتكوين ، فيتحدث كيف « كان المصريون ، الى عهد غير بعيد ، ينظرون الى التجارة بعين الاحتقار ، ويحسبون انها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار ، والى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الأمراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ، ووضعوا النشانات على صدورهم ، وعلقوا في منسقاتهم السيوف تجر على جوانبهم الى

(٣٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٦ .

الأرض ، تخيلوا انهم من انسانية أخرى أعلا من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم وهم يرون كل خدمة غير « أميريه » وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هي أشياء لا يليق الاشتغال بها . ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة الا فئة قليلة ، برهنت على ارادة واقدام واصالة رأى تستحق عليها ثناء الامة المصرية بأسرها .

ولو قارن أى انسان ، لم يعمه الجهل ، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة . . . وبين أولئك الذين منبع ثروتهم ، فى الأغلب ، العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج ، أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر ! « (٣١) .

ولقد كان قاسم أمين يعنى جيدا ان ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحا وسهلا للنشاط التجارى الذى يقوم به الأجانب والنازحون الى بلادنا ، فأخذ ينبه قومه الى قيمة التجارة كحرفة ، بل وكعلم من أشرف العلوم ، لدى الدول الأوروبية المتقدمة والاستعمارية ، ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوروبيين فى هذا الميدان . . فأهاب « بالآباء أن يعدوا أبناءهم الى غاية الوصول الى السعادة ، وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال ، لأنها أبواب الثروة الحقيقية ، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها ، وأول شيء يجب أن يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة .

ان الأوروبيين يجمعون الأموال الهائلة . . . » لانهم فهموا ان التجارة هي علم الثروة ، وهي علم حقيقى

(٣١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

لا يقل فى الفضل عن اشرف العلوم ، ويدرس فى المدارس ، ويتم بالاختبار والعمل (٣٢) . . وانت ايها المصرى البطال ، ابن البلاد ، وادرى بما فيها ، ولك فيها اقريب والحبيب ، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون الى بلادنا؟! « (٣٣) .

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية ، والتجارية منها خاصة ، فى الصراع العالمى بين الدول الاستعمارية المتنافسة ، ويورد نبوءة السياسة بقيام الحرب العالمية الاولى ، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عاما؟! . . وذلك عندما يكتب فيقول :

« ان امم اوروبا قد وجهت التفاتها الى المسائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء ، فانشأت نظارة - (وزارة) - للتجارة ، وللصناعة ، وللمستعمرات ، واكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية ، وتهافتت على وسائل الاستعمار ، وصارت كل امة تزاحم الاخرى فى هذا السبيل . . . حتى ان رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لا بد من الحرب يوما بين انجلترا والمانيا ، لأن المنافسة بين الامتين فى جميع انحاء الدنيا اوصلتهما الى درجة اعتقاد ان احدهما لا يمكن ان تستمر فى طريقها الا اذا سحقت الاخرى ! » .

ثم يستطرد ليقرع الاسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة ، ومنها مصر ، هى موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى الاستعمارية ، وان النهضة هى سبيل افلاتها من مصيرها الاليم ، فيقول : « اننا نحن المصريين لا شغل لنا الا التفرج على المتنافسين . . .

(٣٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٠ .
(٣٣) المصدر السابق . ج ١ ص ١٦٥ .

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن ، وسبب مشاكلهن ،
نحن اللقمة الدسيسة التي يريد كل منهما - (الانجليز
والالمان) - ان يبتلعها في جوفه ! « (٣٤) .

ان قاسم أمين يدعو الى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين
يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار ، ويتمنى لمجتمعه ان
يكون مثل تلك المجتمعات التي توصلت أممها « الى
اقتناء الثروة ، وكثر فيها الأغنياء المليون الذين أصبحوا
يتعاملون بالملايين ، كما نحن نتعامل بال عشرات والمئات ! » .

ثم يضيف متحفظا على طرق جمع الثروة ، فينبه
ان طريق العمل يجب ان يكون هو السبيل لتحصيلها ،
قائلا : « ... ولكن الشيء المهم ، الذي ارجو ملاحظته ،
هو ان كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هي نتيجة عمل
صاحبها .. انه يشتغل ليكسب ، يشتغل دائما ،
يشتغل في النهار ، ويفكر في شغله بالليل ! « (٣٥) .

فهو داعية للتطور الراسمالي ، ومناضل من أجل ازالة
العوائق الاقطاعية من طريق هذا التطور ، ومبشر بقيم
المجتمع البورجوازي .. ولقد كان هذا الطريق ، بالنسبة
لمجتمعه وعصره ، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع
وتطويره وتقديمه في ذلك التاريخ .

واذا كانت هذه هي الدعوة التي بشر بها قاسم أمين
فيما يتعلق بال قاعدة المادية للمجتمع الذي نقده ، والذي
بشر به ، فانه قد صنع ، في اطار البناء الفسوقي
للمجتمع ، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الاتساق .. فهو
قد هاجم الاستبداد ، الذي كان سمة للحكم الشرقي

(٣٤) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٢ .

(٣٥) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

الفردى الاقطاعى .. ودعا الى الحرية كما عرفتہما
المجتمعات البورجوازية الليبرالية فى اوروبا ، وطالب
بالحياة النيايہ فى وقت مبكر جدا ، اذا ما قيس
بالاصوات التى ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الشوره
العرايية واحتلال الانجليز للبلاد .

فہو يتحدث عن « ان الاستبداد اصل كل فساد فى
الأخلاق » .. (٣٦) .

ويطالب بان تكون الحرية فى الاعتقاد ، وفى التعبير
عن المعتقدات مصونة ومكفولة ، بل ومقدسة ، مهما تكن
الآراء والمعتقدات التى يعتنقها الناس ويمبرون عنها ..
يقول : ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتل ابداء كل رأى ،
ونشر كل مذهب ، وترويح كل فكر ... فى البلاد الحرة
قد يجاهر الانسان بانه لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ،
ويطعن فى شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزا بالمبادئ
التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ، يقول ويكتب
ما شاء فى ذلك ، ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألد خصومه
فى الرأى ، ان ينقص شيئا من احترامه لشخصه ، متى
كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح » .

ثم يتساءل : « كم من الزمن يمر على مصر قبل ان تبلغ
هذه الدرجة من الحرية ؟! » (٣٧) .

وهو ينبہ الى أمر هام جدا عندما يربط بين احترام
المجتمع للفضيلة ومقتہ للرديلة وبين قيام رأى عام قوى
فى هذا المجتمع ، اذ « لا يمكن ان تصير الفضيلة مطلوبة
مرغوبا فيها ، والرديلة ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا
أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته ! » (٣٨) .

(٣٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣٧) المصدر السابق . ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٦ .

فلا المراعطة والخطيب ، ولا الوصايا والتجديرات بفاهلة
شيئا ذا قيمة في اعلام شأن الفضيلة وخفض منزلة الرذيلة
كما يفعل ذلك قيام الراى العام صاحب الحكم القسوى
والسليم ! .

ثم يتوج قاسم امين فكره الديمقراطى بالدعوة الى
الارتقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعى الاستشارى
الذى اقامته سلطات الاحتلال الانجليزى بديلا عن المجلس
النيابى الذى حلته بعد هزيمة الثورة العرابية ..
يدعو قاسم امين الى الارتقاء خطوات من هذا النظام
الذى مرت عليه عشر سنوات ، الى نظام المجلس التشريعى
البرلمانى غير الاستشارى .. فيكتب فى سنة ١٨٩٤ م
قائلا : « لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعى ثقة كبيرة
لا يمكن نكرانها ، حتى ان قادتنا يستلهمونه افكارهم . كما
باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم ، ترى
ان هذه السنوات العشر تمثل تدريبا كافيا ، وان مصر
بعد الفتها للتمثيل القومى قد أصبحت جديرة بأن يكون
لها مجلس نواب لا يكون استشاريا فقط ، لقد نضجت
مصر بما يتيح لها عمل هذا الاصلاح . غير اننا نود بالطبع
نظاما تكون فيه القلبة للمعرفة الواعية ، لا لكم
العدوى .. » (٣٩) .



هكذا فكر ، وكتب قاسم امين .. وهكذا نلتقى فى
آثاره الفكرية بما يؤكد انه كان ناقدًا للمجتمع الاقطاعى ،
مهاجما لقيمه .. مبشرا بقيم المجتمع البورجوازى ،
وداعيا الى فتح الطريق امام المجتمع المصرى كى يدخل
الى رحابه ، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الاقطاع
وكبار الملاك .

(٣٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

التطور الفكري

(● ان لينتا قد اوصى بان يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة ، وان يجتمع النساء دون ان يقبل بينهن رجل واحد ، وذلك حمايه لهما من الضعف وقضاء على مصدر الشر ! » .

● ليس في الشريعة نص يوجب الحجاب ...
وانما هي عادة اخذناها عن بعض الامم .. وان نساء العرب والقرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في اوربا ، اقل ميلا للفساد من ساكنات المدن المحجبات ... ان المرأة التي تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » .

● اننى لا افهم ان يقيم الانسان دعوى لتحصيل الطلاق ، فتلقى الارواح لا يمكن ان يكون مادة للتقاضى ! ..

● ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى ادعى الى تضيق دائرته ، وادنى الى المحافظة على نظام الزواج ! ...)

قاسم امين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م أحدث ضجة كبرى في المجتمع المصري والمجتمعات الشرقية ، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت في الشرق من حول كتاب في القرن الذي ظهر فيه .

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب ، فضلا عن الفصول والدراسات والمقالات ، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت ، تقريبا ، للجدل في موضوع الكتاب ، ان بالتأييد او المعارضة والتفنيد . ولقد كانت القضايا الرئيسية التي أثارت الجدل أكثر من غيرها - من بين قضايا « تحرير المرأة » - هي :
١ - ما أثاره الكتاب عن الحجاب الذي كان يسود عالم المرأة في ذلك الحين .

٢ - ما دعا اليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل في إنهاء رابطة الزوجية بالطلاق .
٣ - نقده لنظام تعدد الزوجات ، والدعوة الى ضبطه وتقييده .

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا ، أكثر من غيرها ، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسري السائد ، ولأبرز مشاكل

المرأة الشرفية ، ولاخطر القيود التي تحد من امكانيات تطورها وتحررها وكذلك - وهو هام جدا - العلاقة انونية بين هذه القضايا ، والبحث فيها ، وبين الشريعة الاسلامية . . ذلك ان الجدل حول اية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعة الاسلامية إنما ينقل ، وعلى الفور ، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص الى الساحات العامة التي تتواجد فيها وتشهد أوسع الجماهير ، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصالح للدلاء بما هو صواب من الآراء ! . .

ونحن نعتقد ان خصوم قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» لو فكروا ، أو فكر واحد منهم ، في ترجمة كتابه «المصريون» عن الفرنسية الى العربية - وهو الذي صدر قبل (تحرير المرأة) بخمس سنوات لكان الذي يرد على قاسم أمين في (تحرير المرأة) هو قاسم أمين في «المصريون» ؟! . . وبالذات فيما يتعلق بالقضايا الأساسية الثلاثة التي أثارت الجدل والعراك .

ذلك ان قاسم أمين قد قدم في «تحرير المرأة» الآراء التي كان ينقضها ويفندوها في «المصريون» ، ومن ثم فإننا عندما نقرأ كتابه «المصريون» يخيل إلينا أن الذين يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين ، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات !! . .

وهذا هو الأمر الذي دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكري لقاسم أمين . . والذي يدعونا للتساؤل : كيف لم يلتفت الى هذه الحقيقة ، لا خصومه فقط سنة ١٨٩٩ م ، بل ولا أحد من دارسيه بعد ذلك التاريخ ؟! .

صحيح ان البعض قد اشار الى ان قاسم قد (فصل)

فى « تحرير المرأة » بعض ما أجمله فى « المصريون » (٤٠)، كما أشار آخرون الى ان حماسه لبعض الآراء فى « المصريون » قد استبدل بالروح الهادئة والمنطق الموضوعى فى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . . ولكننا نعتقد ان هذا الشخص غير كاف ، بل وغير دقيق ، حتى لقد خيل الينا ان دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكرى الجذرى الذى حدث لقاسم أمين ، اما انهم لم يقرأوا « المصريون » ، أو انهم قرأوا قراءة العابر المتعجل الذى لا تستوقفه أبرز المعالم فى هذا الكتاب ؟! . .

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة . . لننظر فى فكر قاسم أمين فى كتابيه هذين - « المصريون » و « تحرير المرأة » - خاصة ما تعلق منه بهذه القضايا الثلاث :

الحجاب والمجتمع الانفصالى

يدافع قاسم أمين فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م عن نظام الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره ، ويمتدح النظام الصارم الذى جعل المجتمع الشرقى مجتمعا انفصاليا ، يحرم فيه اختلاط الرجال بالنساء ، ويهاجم تحرر المرأة الأوروبية ، ويفالى فى تصوير مساوىء الاختلاط فى أوروبا ، ويدمغ الرجل والمرأة الأوروبية ، غالبا ، بالتحلل والافتقار الى العفة وصيانة الأعراض . . يقدم فى هذه القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٩ م ! .

(٤٠) « الهلال » نابين قاسم أمين . انظر مقدمة الناشر لكتاب « أسباب ونتائج » ص ١٣ .

فهو لا يرى فى المجتمع الشرقى ، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء ، أية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها أى شىء نافع لها أو للمجتمع .. بل يرى ان المساواة متحققة تماما بين الرجال والنساء ، ذلك « أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله ، بل ويفعلنه ، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن ، وكذلك فان كل محرم علينا محرم عليهن أيضا ، ولما كان محرم علينا ، نحن الرجال ، ان ندخل فى مجتمع النساء فيبدو لى ، من الطبيعى ، ان تقع نفس التحريم على نسائنا . وائنى أكرر ، من وجهة النظر هذه ، ان وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماما ! » (٤١) .

ثم يقرر ان هذا المجتمع الانفصالى ، الذى كان سائدا يومئذ ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين ، « لأن ديننا .. قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقل بينهن رجل واحد . لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذرى على مصدر الشر ! » (٤٢) .

نعم .. هذا هو كلام قاسم أمين ؟! .. هو كلامه فى « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .. وهو أيضا مضمون كلام خصومه عند صدور « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ! .. ثم يهاجم عادات الأوربيين فيما يتعلق بالاختلاط ، متهما إياهم بالتحلل الخلقي ، مصورا ان نتائج الاختلاط غالبا ما تنتهى بفقدان المرأة عففتها وتفريط الرجل فى عرضه .. يقول :

« اننى أعرف انه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس »

(٤١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٣ .

اللطيف ، وان النساء اللاتي يعرفن ابداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن ، غير أنا لا نصادف كل يوم قلاعاً حصينة ، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر ، و « استراتيجية وتكتيك » ! ثم انه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه ، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح ، والانتلاق في الهجوم الحاسم ، في اللحظة المناسبة ، لا قبلها ولا بعدها ! » (٤٣) .

وهو لا يعرض هذه الصورة التي تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوروبية عملاً مكرساً ، أساساً ، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام .. لا يعرضها بوصفها انحرافاً أصاب المجتمع الأوروبي ، وخرج به عن فكره المتمسك بالعفة والشرف ، بل يرى في هذه الصورة التطبيق لفكر الأوروبيين في هذا الموضوع .. فيقول :

« يبدو من أفكار الأوروبيين ان استمتاع المرء بالسعادة وحده هو زعم مرفوض ، بل ان الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة اذا رغب في الاستئثار بها ، ان عليه أن يتيح لها أن تصاونه ، وتدلى بدلوها في أرضاء أصدقائه ، وهو يفهم أن يمزح أصدقائه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها ، ويوجهوا اليها عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسيء النظر اليهم ، فهم في الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة ، ولا شيء مما يفعلونه يعد جاداً أو خطراً ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعابة ، ولا شيء غير ذلك ! كما يمنح الزوج في نفس الوقت اهتماماً لزوجات الآخرين ، ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجاملات ، ويوجه اليهن نفس

(٤٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

عبارات الفزل ، تلك هي متعة اللقاءات المشتركة ! « (٤٤) .

ثم يقارن بين موقفنا نحن الشرقيين من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدينا ، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول :

« انه على تقيض العادات الأوروبية ، التي يبدو انها خلقت لنشر المتعة على الأرض .. تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة ... ان في العالم الاسلامي مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين ، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية في كل تفاصيل حياتهم ، غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج في ظل العادات الأوروبية ، ويجب لقبولهم هذه العادات ان ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود ...

ان عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل الى نساءنا روحا ما زالت تقية ، وقلبا ما زال مكتمل الحنان ، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم . فالزواج عندنا بداية ، في حين انه عندهم ، تقريبا ، دائما نهاية ! .. » (٤٥) .

هكذا كتب قاسم أمين في كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .

١ - فحبذ الحجاب للمرأة الشرقية ، ودافع عن المجتمع الشرقي الانفصالي .. ورأى في ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الاسلام ، والتحقيق ثل مساواة الحقبة بين الرجال والنساء ! ..

٢ - ووجه سهام نقده وهجومه الى الاختلاط في

(٤٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٢ .

(٤٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

أوروبا ، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التي ربما كانت خاصة بشريحة هامشية في تلك المجتمعات .

٣ - وخلص الى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة الى التغيير . . وان المشكلة هناك لدى أوروبا التي أباحت الاختلاط وفقدت النعيم الذي ينعم به الشرقيون !؟ . .

والآن . . ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية في « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ؟! . .

في « تحرير المرأة » ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من أن الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية ، يرتبط فيها بتعاليم الاسلام . . ويراه « عادة » مرت بمجتمعات عديدة ، ومنها مجتمعات أوروبية ، ويقرر أن تطور هذه « العادة » بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من « العادات » . . يقول : وذلك « لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة في العالم . قال « لاروس » تحت كلمة « خمار » : « كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ، ويخفين وجوههن بطرف منه ، كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال « ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل في البلاد ، فكن يغطين رءوسهن اذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة ، وكانت النساء تستعملن الخمار في القرون الوسطى ، خصوصا في القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا ، واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر ، حيث صارت النساء تخفف منه الى أن صار ، كما هو الآن ، نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن

بقى بعد ذلك بزمن فى اسبانيا وفى بلاد امريكا التى كانت تابعة لها « (٤٦) .

ثم سار - فى « تحرير المرأة » - مواصلا موقفه الفكرى الجديد ، فنفى أن يكون هذا الحجاب تنفيذا لتعاليم الاسلام ، فهو « عادة » لا « شرع » . . فقال : « . . ان الأوامر الالهية يجب الاذعان لها دون بحث ولا مناقشة ولكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب ، على هذه الطريقة المعهودة ، وانما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالفوا فيها والبسوها لباس الدين . . والدين براء منها » (٤٧) .

ثم رآناه يطلب موقفا وسطا ، لا هو تبرج الغرب ومفالاته فى عرض مفاتن المرأة ، ولا هو الحجاب الشرقى ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، فيقول : « ان الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمشارت الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتخرج من ظهور النساء لأعين الرجل . . . وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهو الذى أدعوا اليه » (٤٨) .

ومعروف ان الحجاب الشرعى لا علاقة له بمنع الاختلاط ، اذ هو يعنى ستر جسم المرأة ومفاتنها ، عدا الوجه والكفين . . وبعد ان كان قاسم أمين يدافع - فى « المصريون » - عن المجتمع الانفصالى ، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الاسلامى ، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالى ، ويستنكر امكانية ممارسة المرأة لواجباتها

(٤٦) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٤ .

(٤٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٥ .

(٤٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٣ .

ومهماتها فى الحياة طالما ساد الانفصال بين الجنسين فى المجتمع ، اذ « كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟! .. ان الضرورة احوالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهده فى الخادومات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة ، بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن ! » (٤٩) .

وبعد ان كان الاختلاط عنده شراكا يستخدمها الرجل للايقاع بالمرأة فى حبائل الحب والعشق والمتعة ، أخذ ينفى هذا الفهم السطحي ، ويرى قطاعات المجتمع التى يلعب الاختلاط والتحرر فى حياتها دورا انتاجيا ونضاليا فى سبيل العيش ، ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائع التى تستر بمبازلها خلف الحجاب ! فكتب مقررا « ان نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى اوربا تقريبا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللاتى لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » (٥٠) .

هكذا حسم القضية هذا الحسم الجديد ! .

وبعد الصورة التى قدمها — فى « المصريين » — للمرأة الأوروبية والغربية ، صورة العاشقة الغانية ، والفريسة التى لا تلبث ان تستسلم ، سريعا أو بعد زمن ، لأغراء

(٤٩) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٨ .

(٥٠) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٩ .

الرجل الساعى لاقتناصها ، عاد قاسم أمين عن رأيه هذا فى نساء الافرنج ، فرأى انهن « يحسافطن على ظواهرهن ، على العموم » . . (٥١) وأثنى على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها ، وتحدث باعجاب عن الاختلاط هناك « فنساء أمريكا هن اكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، وأكثرهن اختلاطا بالرجال ، حتى ان البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة ، فتتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ! » (٥٢) .

ومع هذا الاختلاط فى الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة . . « فكل مطبلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى انهن يأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه ! » (٥٣) .

تلك هى قضية الحجاب . . وموقف قاسم أمين منها . . موقفه القديم كما صورته فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م ، وموقفه الجديد ، والمناقض جذريا لموقفه القديم ، والذى عرضه فى كتابه « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م .



تقييد الطلاق

والقضية الثانية التى تقدمها مثلاً حياً وواضحاً للتطور الفكرى الذى مر به قاسم أمين ، هى قضية الموقف من « الطلاق » . . وهل هو حق مطلق للرجل ؟ . . أم ان الأمر يستدعى تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الاطلاق ؟ . .

-
- (٥١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٩ .
 - (٥٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٩ .
 - (٥٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٨٠ .

ذلك ان قاسم أمين ، في كتابه « المصريون » ، يدافع من بقاء الحرية الكاملة ، وغير المقيسدة ، للرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صوابا .. وهو هنا يستنكر الآراء الاصلاحية التي يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحكم من القاضي بعد بذله الجهد - بواسطة التحكيم - لإصلاح ذات البين .. وهو يصور موقفه هذا عندما يقول :

«... غالبا ما يكون الطلاق علاجاً أسوأ من الداء ، غير ان له ، كجميع الأدوية ، موهبة الشفاء في بعض الأحيان ، انه عملية بتر يدعن لها المصاب كارها دائما ، مطلقا صرخات الألم ، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت .

وقد رأى المشرع الاسلامى من الضرورى ترك هذه المسألة الخطيرة فى يد الزوجين يتصرفان فيها بحريتهما ، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلهما ، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما وهما يتوليان بأنفسهما مهمة اصدار الحكم على مصيرهما اللاتى .

انى لا أفهم أن يقيم الانسان دعوى ليحصل على الطلاق فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى ، كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك . أية محكمة تلك التى تزعم قدرتها على توجيه قلبى وشد وثاقه ، وهو المتقلب كثير النزوات ؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة ؟! ان موضوع هذه القضية هو شخصيتى الصعبة المعقدة التى تحتاج عدة سنوات من عبقرى مثل « زولا » لكى يفهمها ويحللها ويحكم عليها ! « (٥٤) .

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا ، ويتبنى الراى

(٥٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

المعاني لرأيه الذي أسلفناه ، وأن يسكون بالتدريج ،
 فيبدأ بالشكوى من مضار الاسراف القائم والحاصل في
 استخدام الرجال لحقهم المطلق في الطلاق .. فهو قد
 أصبح « أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة » .. ومع
 ذلك « اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جدا ،
 لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها لعقل .. » (٥٥) .
 ثم بعد ذلك يحسم الموقف ، فيدعو الى تقييد الاطلاق
 الذي يتمتع به الرجل في ايقاع الطلاق ، وينقض ، في
 « تحرير المرأة » ، منطقته في « المصريون » ، فتبدل
 المواقف ، ويرفع خصومه في سنة ١٨٩٩ م نفس حججه
 هو في سنة ١٨٩٤ م ! نعم .. يطلب قاسم امين ، في
 « تحرير المرأة » ، أن توضع القيود على الطلاق .. وذلك
 من مثل :

١ - قيد الارادة الواضحة والنية الحقيقية على فسخ
 عرى الزوجية .

٢ - قيد الاشهاد على وقوع الطلاق .

٣ - قيد التحكيم الذي حدده القرآن بهدف محاولة
 الاصلاح .

٤ - قيد جعل ايقاع الطلاق من اختصاص القضاء .

وفي هذا الأمر يكتب ليقول :

« .. يجب أن يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به
 رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية
 عند الزوج واردة واضحة في انه انما يريد الانفصال من
 زوجته .. وان لمريد الاصلاح ان يبحث في كتب الشرع
 كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا

(٥٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٥ .

كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما . . . فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الأشهاد شرط في صحة الطلاق ، كما هو شرط في صحة الزواج ، كما ذكره « الطبرسي » ، وكما تشير إليه الآية الواردة في سورة الطلاق ، حيث جاء في آخرها : (واشهدوا ذوي عدل منكم) ، (٥٦) أليس هذا أمرا صريحا بالأشهاد ، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامسالك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا ؟ . . نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس ، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد أطلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كزماننا هذا ، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة ، كما هو شأننا اليوم .

ثم يستطرد قاسم أمين ليصوغ مشروعا بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطلاق ، فيقول :

« . . . بل أن أرادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتي :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليها أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : « يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أن

(٥٦) الطلاق : ٢ .

الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعه الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : اذا أصر الزوج . بعد مضي الأسبوع ، على نية الطلاق ، فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : اذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدمتا تقريرا للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصبح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية . . . وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وانما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ! . . ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى ادعى الى تضيق دائرته وادنى الى المحافظة على نظام الزواج « (٥٧) » .

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة ، فتبنى سنة ١٨٩٩ م فكر خصومه فى سنة ١٨٩٤ م ، كما تبنى خصومه فى سنة ١٨٩٩ م ففكره هو فى سنة ١٨٩٤ م ! . .

(٥٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٤ .

تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التي تقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هي موقفه من « تعدد الزوجات » . . فعلى الرغم من أن كلا من كتابيه « المصريون » و « تحرير المرأة » يشترط قيام الضرورة لجواز التعدد والزواج بأكثر من زوجة واحدة ، إلا أنه في « تحرير المرأة » كان أكثر ميلا لتغليب منع التعدد على إباحته وتجويزه ، كما كان كذلك أكثر تنبيها على مضارده ومخاطره . . بل لقد تحدث في « المصريون » عن أمور نفى أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد ، ثم عاد في « تحرير المرأة » فراها خطرا يجب لأجلها منع هذا النظام .

فهو في « المصريون » يتحدث عن موقف الشرع الاسلامي من التعدد فيذهب الى أن الشرع الاسلامي يتحدث إلينا ، عن التعدد ، قائلا : « من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة ، اننى أنصحكم بذلك من أجل راحتكم ، فإذا حدث حادث حطم ، لسبب من الأسباب ، حياتكم الزوجية ، فتستطيعون أخذ زوجة ثانية ، ويمكن لكم ان ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة . ولكن ، فليكن معلوما لكم اننى لا أبيع لكم ذلك الا اذا كنتم مضطرين اليه وخاضعين لضرورات محددة . . واننى أفرض عليكم . . . ان تعاملوا هؤلاء النساء جميعا ، فى كل الأمور ، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة ، وأن تكون هذه النسوة جميعا زوجاتكم على نفس المستوى ، وأن تقوموا بكل نفقاتهن ، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهن أولادكم ، فتسهرن على تعليمهم جميعا بنفس الاهتمام واليقظة . . فإذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة

والمتنوعة ، واذا وجدتم انفسكم في حالة ضرورة تحتم
الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة ، والا فلا تأخذوا
الا زوجة واحدة ، وهذا افضل .. » .

كما يعرض قاسم أمين ، في هذا الكتاب ، نراى
الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييدا شديدا ، لأنه
قد اصبح مصدرا لشيوع العداوة والبغضاء بين الاخوة
المؤمنين من أمهات عدة ، فيرفض هذه الحجة ، ويقول
« يتخيل الناس ، بصفة عامة ، ان الأطفال الذين يولدون
من أمهات مختلفة يحدث لهم ، بالضرورة ، ان يتبادلوا
الكراهية ، وان يتعاركوا صباحا ومساء ، ومع ذلك فان
هذا لا يحدث ، والمسألة مسألة تعود !! » (٥٨) .

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية في
« تحرير المرأة » تطورا ملحوظا.. فهو يقول : « .. لا يعذر
رجل يتزوج أكثر من امرأة ، اللهم الا في حالة الضرورة
المطلقة .. وغاية ما يستفاد من آية التحليل - (فانكحوا
ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتهم
الا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت ايماكنكم ، ذلك أدنى
الا تعولوا) .. (٥٩) - انما هو حل تعدد الزوجات
اذا أمن الجور . وهذا الحلال ، كسائر أنواع الحلال ،
تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى ، من المنع والكراهية
وغيرها ، بحسب ما يترتب عليه من المفسد والمصالح ،
فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات ، كما هو
مشاهد في أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد في
العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ،
وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشیوع ذلك

(٥٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٨٥ - ٨٧ .

(٥٩) النساء : ٣ .

الى حد يكاد يكون عاما ، جاز للحاكم ، رعاية للمصلحة العامة ، ان يمنع تعدد الزوجات ، بشرط أو بغير شرط ، على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة .. » (٦٠) .

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد في العائلات وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد ، وهو ما كان ينكره من قبل .. وهو هنا يتحدث عن جواز اصدار تشريع يمنع التعدد مطلقا اذا غلبت المفسد الناشئة عنه في المجتمع ، ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردي والتصرف الفردي كما كان عليه موقفه في كتاب « المصريون » .

وهو تطور ملحوظ في فكره حيال هذا الموضوع . هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤م ، عندما أصدر رده على دوف دراكور وما بين سنة ١٨٩٩ م عندما أصدر « تحرير المرأة » .. وهو التطور الذي سقنا عليه الأدلة ، وقدمنا النماذج والأمثلة التي تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات .

لكن ، يبقى سؤال هام لا بد من الإجابة عليه .. وهو : لماذا كان هذا التطور الفكري ، عند قاسم أمين أساسا وبالدرجة الأولى ، في تحديد رأى الشرع الاسلامي من القضايا التي كانت مثارة يومئذ بين الباحثين في قضايا الأسرة والمرأة وشؤونهما ؟ وبالتحديد في قضايا : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ؟ .

اننا لا نلاحظ تطورا فكريا بارزا في آرائه الأخرى ، مثل آرائه في : الأدب ، واللغة ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والمنهج ، والحضارة .. الخ .. الخ .. والذي لاحظناه هو أن التطور الملحوظ كاد أن يقتصر على الآراء التي حسواها كل من « المصريون »

(٦٠) المصدر السابق . ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

و « تحرير المرأة » باعتبارها رأى الشرع الاسلامى فى مشاكل الأسرة وعلاجها .

وأهمية هذا السؤال ، ومن ثم أهمية الاجابة عليه ، تكمن فى ذلك الرأى والموقف الذى أبديناه من قبل عندما كتبنا الدراسة التى قدمنا بها (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فقلنا يومها : اننا مع القائلين بأن للإمام محمد عبده مشاركة فى تأليف كتاب « تحرير المرأة » ، ولقد قدمنا أدلتنا التى تثبت ان الفصول التى عرضت لرأى الشرع فى قضايا الحجاب والزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، بهذا الكتاب ، هى للأستاذ الامام ، وليست لقاسم أمين .

لقد رأينا ذلك ، وكتبنا عنه صفحات أثبتناها كذلك فى التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين . . ونحن نود أن نضيف هنا :

ان هذه الدراسة التى قدمناها ، فى هذا الفصل ، عن التطور الفكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يدعم ذلك الرأى الذى سبق لنا أن قررناه .

ذلك ان جوهر الحجة التى قدمناها ، ودللنا عليها يومئذ ، هو أن الفكر الاسلامى المتخصص الذى قدم فى هذه الفصول هو من صنع امام مجتهد فى الاسلام ، ولم يكن فى ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الادلاء بهذه الاجتهادات واصدار هذه الأحكام ، وان هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين .

كما ان جوهر حجة خصوم هذا الرأى كان ان قاسم أمين ليس غريبا عن الشريعة الاسلامية ومباحثها ، فلقد درسها كرجل قانون ضليع .

ولكن . . بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكرى . .

لنا أن نسأل : هل درس قاسم الشريعة بين سنتي ١٨٩٤ م و ١٨٩٩ م ؟! .. أم قبل ذلك بكثير ؟! .. ان العلوم انه تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١ م ، وأنهى دراسته القانونية في فرنسا سنة ١٨٨٥ م .. ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضاء ، في النيابة أو مستشارا في محكمة الاستئناف .. فاذا ما جاء في سنة ١٨٩٤ م وقدم لنا في كتابه « المصريون » تلك الآراء التي قال عنها انها آراء الشرع الاسلامي في الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات ، كنا مطالبين بأن نقول : ان هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الاسلامي ، وفهمه له في تلك المباحث .. واذا ما قدم لنا في « تحرير المرأة » آراء الشرع الاسلامي ، في هذه القضايا ، على نحو مناقض لما في « المصريون » كان لنا ، ان لم يكن علينا ، أن نؤيد ونزكي قول من قال : ان الفصول التي حواها « تحرير المرأة » عن رأي الشرع في هذه القضايا انما هي للأستاذ الامام محمد عبده ، أسهم بها مع قاسم أمين في تأليف هذا الكتاب .

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان هذه الصفحات التي قدمناها عن التطور الفكري لقاسم أمين ، هي دليل جديد يضاف الى الأدلة التي سبق أن قدمناها ونحن نقدم لأعمال محمد عبده على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بكتاب « تحرير المرأة » .. والفضل في اضافة هذا الدليل الجديد يعود ، في الأساس الى استنادنا في دراستنا هذه ، التي نقدمها ، على كتاب « المصريون » ، الذي ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى ، والذي كان الدليل الأول على هذا التطور الفكري القائم في آثار قاسم أمين ..

حرية المرأة

(هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية ... فشل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية ... ففي الشرق نجد المرأة في رق الرجل ، والرجل في رق الحكومة .. وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كلياً .

وافتهار المرأة المسلمة الى الاستقلال يكسب ضروريات حياتها هو السبب الذي جر ضياع حقوقها ، فلقد استأثر الرجل بكل حق ، ونظر اليها نظيره الى حيوان لطيف ، يكفيه لوازمه كي يتسلى به ! ..)

قاسم أمين .

ان التعميم فى الحكم على الميراث العربى والشرقى فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرة اليها وتقييم دورها فى المجتمع وعلاقتها بالرجل ، ذلك الميراث الذى واجهه قاسم أمين ومعاصروه عندما فكروا فى دخول هذا الميدان من ميادين الاصلاح الاجتماعى .. ان التعميم فى الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير ..

ذلك ان تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا الى حد كبير فى هذا الموضوع .. فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية ، وجدنا للمرأة فى صفوفها دورا ملحوظا ، نسبيا ، ووجدنا فى فكر هذه الحركات والتيارات حديثا مشوبا بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها فى الحياة .. نجد ذلك عند المعتزلة ، والخوارج ، وبعض فرق الشيعة .

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف ، والمهمل الاولى للحركات الفكرية هى التبرير لمظالم الحكم واضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة ، والنظر اليها كسلعة من سلع المتعة ، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كى تترين به القصور ويستمتع به الرجال ..

ولما كانت الغلبة والسيادة ، ان فى الزمن طولا او فى الصوت قوة وعلوا ، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثانى والتقييم الاخير ، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكرى مليئة بكل ما يحقر المرأة ويفض من شأنها ، ورسخ ذلك فى فكرية المجتمع الشرقى ، خصوصا بعد ان طال ليل العصور « الملوكية - العثمانية » ، حتى لقد غابت من الميراث الفكرى الذى كان الناس يتداولونه اواخر القرن الثامن عشر واولئل القرن التاسع عشر تلك القسمة الاخرى فى تراثنا ، التى تنصف المرأة وتضع اعتبارا لدورها الايجابى فى الحياة .

ومن هنا نستطيع ان نتخيل : اى ميراث فكرى كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظها من الحرية ونصيبها من المساواة ؟! . . وهذا التخيل امر ضرورى ، لا لتقييم العمل الفكرى والتطبيقى الذى بذله وانجزه قاسم أمين ، فى ذلك الميدان ، التقييم الذى يستحقه فحسب ، بل ولادراك : لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله فى هذا الميدان متواضعة جدا ، عندما ننظر لها الآن فى ضوء ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلا ، فضلا عن الآمال التى لا زالت تسعى فى سبيل تحقيقها على هذا الدرب الطويل .

ونحن نستطيع ان تكشف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التى ورثها ذلك الجيل ، فى هذا الموضوع ، بالإشارة الى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهما المجتمع من المرأة .

أولهما : يعبر عن المقولة القائلة « بأن موت المرأة خير من حياتها » ، وان بطن الأرض أكرم لها وللحياسة من

ظهرها !! .. ويعبر عن هذه المقولة أبو بكر الخوارزمي
(٩٣٥ - ٩٩٣ م) عندما يكتب الى رئيس « بهراء » معزيا
في وفاة ابنته ، فيقول :

« ... ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من
غرائب أمرها ، لكنت الى التهئية أقرب من التعزية !
فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من
المكرمات ! ونحن في زمان اذا قدم أحدا فيه الحرمة ،
فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد
بلغ أميته من الصهر ! قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريما
كنعمة عورة سترت بقبر
وقال آخر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شققا
والموت أكرم نزال على الحرم
وقال آخر :

وددت بنيتي وودت أني
وضعت بنيتي في لحـد قبري
وقال آخر :

ومن غاية المجـد والمكرمات
بقاء البنين وموت البنات
وقال آخر :

سميتها إذ ولدت : تموت
والقبر صهر ضامن وبيت !! (٦١)
وثانيهما : - أي ثاني النصين - هو المعبر عن سيادة
المجتمع الانفصالي ، وصرامة هذا الفصل بين الرجال

(٦١) «الهلال» تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة ناشر « أسباب
ونائج » ص ٤ ، ٥ .

والنساء .. ويعبر أبو العلاء المعرى (٩٧٣ - ١٠٥٧ م)
عن هذه المقولة عندما يقول :

إذا بلغ الوليد لديك عشرا
فلا يدخل على الحريم الوليد
وان خالفتنى وأضعت نصيحى
فأنت ، وان رزقت حجبى ، بليد
الا أن النساء حبال غى
بهن يضيع الشرف التليد ! (٦٢)

تلك كانت مواريث الفكر ، عن المرأة ، التى واجهها
قاسم أمين وجيل قاسم أمين .. ومن ثم فنحن نستطيع
أن نبصر عمق قاسم أمين عندما ربط بين تخلف المرأة
وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة ، فى فترات
طويلة ، حياة الشرق ومجتمعاته .. فلا الاسلام ، ولا
طبيعة الأشياء ، ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها ،
هى التى ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون
الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة ، وانما هو
الاستبداد الذى جعل من المرأة احدى فرائسه ، فكلها
بالقيود والأغلال .. ومن ثم فان تحررها مرتبط بتحرر
الرجل من الاستبداد ، أى بتحرر المجتمع ككل .. وهو
يعبر عن هذه الفكرة الهامة عندما يتحدث عن « أن
مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة ، والحكومة
التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن
تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .. فهناك تلازم
بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ، ففى
كل مكان حظ الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق

(٦٢) « لزوم مالا يلزم » ج ١ ص ٢٤٧ . بحثنى أمين عبد العزيز
الخانجى . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

حط بنفسه وأفقدتها وجدان الحرية ، وبالعكس ، فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالجسالتان مرتبطتان ارتباطا كليا .

وآن للسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : انهما متفاعلتان ، وان لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : ان شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

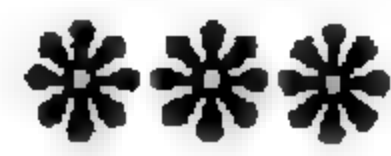
انظر الى البلاد الشرقية ، تجد ان المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم اذا خرج منه ! ثم انظر الى البلاد الأوروبية ، تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ! « (٦٣) » .

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، والعمق أيضا ، وعامها قاسم أمين ، عندما أدرك أن افتقار المرأة إلى « الاستقلال الاقتصادى » ، وبعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها .. وادراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج الاجتماعى الذى استخدمه فى دراسة المجتمع وتفسير التاريخ .. وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره فى تحريرها ، إذ « لو تبصر المسلمون لعلموا أن إعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة

(٦٣) « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » . ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

بنفسها ، هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فان الرجل لما كان مسئولاً عن كل شيء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ فى نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه ، على أن يتسلى به ! » (٦٤) .

ذلك هو الميراث الفكرى ، المعبر عن الواقع العملى ، أى وجهها العملة المجسدة لوضع المرأة فى المجتمع الشرقى عندما نادى بتحريرها قاسم أمين .
وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية لذلك الوضع المتخلف الذى كانت عليه النساء فى مجتمعه الذى عاش فيه .



ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، أن نستدعى الى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين .

فهى ، اجتماعياً ، لا وجود لها لعزلتها عن المجتمع وقبوعها خلف جدران الحريم .. وكما يقول قاسم أمين :
فانه « ليس بين الأمهات الا عدد قليل جداً يعرف القراءة والكتابة ، وليس واحدة لها المام ، ولو سطحي ، بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من الفنون ، وهى فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا ، ولا تدرى شيئاً من المعاملات والتجارة ولا من نظمات وقوانين البلاد التى تسكنها ، فضلاً عن الالمام بأى شيء من أحوال البلاد الأخرى ، وهى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل ، وأمة داخل الأمة

لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفى الحقيقة : انهن

(٦٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٣ .

آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة . . . باقيات
على ما كن عليه فى تلك الأوقات ! » (٦٥) .

ولم يكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله ، فلم تكن ،
كما قد يتوهم البعض ، ملكة لملكة المنزل ، وانما كانت
مخلوقا ضعيفا قد اعد ويعد للاستمتاع اولا وقبل كل
شئ . . . وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين :

« وأما من الناحية المعنوية ، فهي — (أى المرأة) —
مخلوق متكاسل ، ذات طبيعة تأملية ، وبعيدة عن
الفاعلية ، تكثر الحديث والضحك ، نحب دينها ، لكنها
لا تمارسه ! ، ليس لها مثل أعلى ، وتتأقلم مع
الحياة الواقعية ، وهى زوجة نموذجية ، وام حانية ،
لسكنها محدودة المواهب فى التدبير المنزلى ! » .

فهى مخلوق ذبلت مواهبه وامكانياته من طول تعطلها
وحرمانها من التدريب على ممارسة ما خلقها له الخالق
سبحانه ! . . ولقد دبت لها من هذه المواهب والامكانيات
ما كان متعلقا منها « بالشكل » ، فهى على قدر لا بأس
به من الجمال « يتجلى على وجه الخصوص فى نسب
أعضائها . ومتانة الجسد وتماسكه ، كم تنتشى العيون
التي تتطلع الى فـلاحة جميلة تمشى مستقيمة بارزة
النهدين مثقلة القوام ممثلة العينين بالأحلام ، طويلة
تقريبا ، فى كفيها وقدميها دقة رائعة ! . . أما ما تتميز
به حقا فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحائيتان حتى
ليحسبها المرء عيني « ملاك » ، والمعبرتان ، حتى ليفهمهما
المرء قبل أن تتحدث هى ! » (٦٦) .

(٦٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٧ .

(٦٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض الذين قوبلت
بهما صيحات قاسم أمين ، فان مطالب الرجل كانت
متواضعة ، بل شديده التواضع ، اذا ما فيست بما
يجب لتحرير امرأة حفا من انجارات واصلاحات . ولكن
هذه المطالب كانت تمثل نورة حقيقية وتغيرا جذريا في
فكر المجتمع واعرافه بالفياس الى واقع المراد الذي اشربا
الى الملمح العام من ملامحه .

ففى التعليم : لم يطلب قاسم أمين مساواة بين المرأة
والرجل فى جميع مراحلها . بل طلب لها فقط المساواة
به فى التعليم الابتدائى ؟! .. وعبر عن مطلبه المتواضع
هذا عندما قال :

« .. ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل
فى التعليم ، فذلك غير ضرورى ، وانما اطلب الآن ،
ولا اتردد فى الطلب ، ان توجد هذه المساواة فى التعليم
الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهم الى هذا الحد
مثل ما يعتنى بتعليم البنين » .

وهو لا ينسى فى حديثه عن تعليم المرأة ان يميز بين
التعليم الجاد الذى يطلبه لها ، وهو الذى يصبح فى
حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها ايجابية ، ويطورها بتطور
مجتمعا ، وبين ذلك التعليم الذى ليس له من التعليم
سوى المظهر والقشور .. ولذلك فهو ينتقد ما كان
موجودا يومها من « تعليم » تتلقاه المرأة ، كى تظل
به « متعة » أكثر جودة .. فيقول :

« .. أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ،
لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية ،
وشيئا من الخياطة والتطريز ، والموسيقى ، ولا يتعلمن
من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت اليها ، وربما زادت

تلك المعارف غرورا بأنفسهن ، فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت أن تقول : نهارك سعيد ، باللغة الفرنسية ، فقد فاقت أترابها ، وارتفع شأنها ، وسما عقلها ، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضى حياتها في تلاوة أقاصيص وحكايات قلما تفيد الا في إثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهي شاخصة الى دخان السيجارة التي تقبض عليها ! ..

أكثر ما تعرفه المرأة ، التي يقال الآن انها متعلمة ، هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها ، وما بقى من معارفها فهي قشور تجمعتها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء . أين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوى على مطاردة الوهم ١٤ « (٦٧) .

ذلك هو حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات .. وهذا هو رأى قاسم فى هذا التعليم .. ومطلبه فى تعليم النساء .

وفى الحجاب : لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذى كان عليه أمرها فى أوروبا يومئذ ، ولا على النحو الذى وصل اليه أمرها هذه الأيام .. وهو كذلك لم يطلب اباحة خلوة المرأة بالرجل الواحد ، وهو غريب عنها ، ليس بمحرم لها .. وانما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع ، وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفها العامة والطبيعة الضرورية ، وحيد الوقوف بالحجاب عند ما هو شرعى منه وفق آراء

(٦٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٦ . ٣٧ .

الفقهاء ، ونادى بالاختلاط الذى تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته فى معترك كسب الرزق والحياة .. وعن هذا المطلب المتواضع يقول :

« ربما يتوهم ناظر اننى ارى الآن رفع الحجاب بالمرّة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فاننى لا ازال أدافع عن الحجاب ، واعتبره أصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها ، غير اننى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية ، وهو على ما فى تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المقالة فى الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونهم عملا بالأحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة .

والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا فى إباحة الكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتخرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمانها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية ، وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهو الذى ادعو اليه .. » (٦٨) .

والحجاب الشرعى هو كشف المرأة وجهها وكفيها عند كل الفقهاء ، وأجزاء أخرى من بعض أطرافها الأخرى ، عند نفر منهم ، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين .

وفى العمل : تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعا لتطوره الفكرى ازاء تحرير المرأة .. وهو هنا قد مر بمراحل ثلاث :

(٦٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٣ .

١ - فى البداية : وهى مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م كان يطلب تعليم المرأة ، ويطلب كذلك أن تظل فى البيت ، خاصا بها ومختصة به ، وينتقد اشتغالها ، لا « بالوظائف العمومية » ، بل « وبالأعمال المدنية » التى يقوم بها الرجال وهى فى التعبير عن هذه الفكرة يقول :

« اننى لا أرى الفائدة التى يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال ، بينما أرى كل ما سوف يفقدنه ، فان هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التى يبدو انهن خلقن من أجلها ، كما ان هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع ، ولن تزيد من سحرهن ، بل على العكس من ذلك . ان مشهد الأم المتفانية يملؤنى حنانا ، كما يحرك سرورى منظر الزوجة التى تعنى ببيتها ، فى حين انى لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على فى خطى الرجال ، ممسكة كتابا فى يدها ، وتهز ذراعى فى عنف ، وهى تصيح بى : « كيف حالك يا عزيزى ؟ » بل لعلى أشعر بشيء غير بعيد عن النفور .

هل السيدات المؤلفات والسياسيات - (ولست أتحدث إلا عن اتخذن حرفة الأدب وتجارته) - هل هن حقيقة نساء ؟ وما هى أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتى رأين كل شيء ، وقرأن كل شيء ، وفعلن كل شيء ، واللاتى لم تعد وجوههن تحمر ، وبين تلك الملائكة اللاتى ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة ؟ ! .

اننى أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن ، ولكننى نصير متحمس لأخذ المرأة قدرا نسبيا من التعليم . اننى أنعى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق ، يجب أن

تعرف المرأة دائما ما يكفي لكي تلقن ابناءها مبادئ
الأخلاق والفضيلة ، ولتقدم لهم شرحا علميا للأشياء التي
تحيط بهم ، يجب أن تعرف دائما كيف تجيب ، دون أن
تخطيء ، على تساؤلات الطفولة التي لا تنقطع .. (٦٩) .

٢ - وفي المرحلة الثانية : مرحلة كتاب « تحرير
المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه
الرافض تولى المرأة « الوظائف العمومية » ، ولكنه
يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس ، مثل الرجل « جميع
الأعمال المدنية » .. علاوة على شئونها الخاصة .. ويعبر
عن موقفه الجديد هذا بقوله :

« ان الناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا
الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة في
بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها
الخصوصية وحريتها ، وان الشارع لم يراع في هذه
المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في
العائلة ، وحصر الوظائف العمومية في الرجال ، وهو
تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه ، الى الآن ، التمدن في
أوروبا - (لم تكن المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها
السياسية بعد) - ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية
المرأة والوصول بها الى أعلى مرتبة تستحقها ، وما من
عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة
التي خولتها الشريعة الإسلامية الى المرأة في جميع الأعمال
المدنية - ومنها اهليتها لأن تكون وصية على رجل -
يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي الى حرمان

المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق « . . (٧٠) » ،

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية ، اذا تعلمت ،
لاجادة كل « الاعمال المدنية » التى تجيدها المرأة الغربية . .
كما يرى فى ذلك عاملا هاما ينمى ثروة المجتمع ويدفع
بتطوره الى الامام ، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار
غير مستغل ، بل لقد أصبحت عالية على ثمرة عمل
الرجال . . « فلأن النساء ، فى كل بلد ، يقدرن بنصف
سكانه ، على الأقل ، فيقاؤهن فى الجهل حرمان من
الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم
ما لا يخفى .

ولا شئ يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل ، مثل
الغربية ، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة
والصناعة ، الا جهلها وأهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها
الى مجتمع الاحياء ، ووجهت عزميتها الى مجاراتهم فى
الاعمال الحيوية ، واستعملت مداركها وقواها العقلية
والجسمية لصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر
ما تستهلك ، لا كما هى اليوم عالية لا تعيش الا بعمل
غيرها ، ولكان ذلك خيرا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد
الثروة العامة والثمرات العقلية فيه . . « (٧١) » .

٢ - وفى المرحلة الثالثة : من تطوره الفكرى ، ازاء هذه
القضية ، مرحلة « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م ، يبقى
قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة « بالأشغال
العمومية والوظائف العامة » أى العمل السياسى ووظائفه
العليا ، ولكنه يتقدم فكريا عن ذى قبل ، عندما يعلل
للفروق القائمة بين الجنسين ، والتى أهلت الرجل ، دون

(٧٠) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٨٢ .

(٧١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .

المرأة ، لهذه الوظائف السياسية العليا ، فبعد أن كان يرى ذلك تقسيما فطريا وأبديا للعمل ، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين ، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه ، وهو الأمر الذى حرمت منه المرأة وأبعدت عنه قرونا طويلة ، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران ، وهما فى الامكان ، ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من أسباب .. أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه ، فهى التى يقول فيها :

« انى ما طلبت ولا اطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شىء من المزايا والحقوق السياسية ، لا لانى اعتقد ان الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ، حجرا عاما مؤبدا ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لانى أرى اننا لا نزال الى الآن فى احتياج كبير لرجال بحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقا ، ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية .. » (٧٢) .

هكذا رأى قاسم أمين قضية « عمل المرأة » .. وهكذا تطور فكره ازاءها ما بين سنة ١٨٩٤ م وسنة ١٩٠٠ م .

والآن .. لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال :
أية امرأة تلك التى ركز قاسم أمين حديثه عنها ؟؟ .
وبنت أية طبقة من طبقات الأمة تلك التى سعى لتحريرها ؟؟ .

(٧٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٦١ .

لقد سبق لنا واثبتنا ان قاسم أمين كان داعية مصلحا
يبشر بقيم المجتمع البورجوازي ، ويدعو لفتح الطريق
امام مصر كي تتطور فتخلف عصر الاقطاع وراءها وتدخل
الى رحاب التنوير البورجوازي ... والآن نقول : ان
المرأة التي شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين ، هي ،
في الأساس ، المرأة البورجوازية ، امرأة الطبقة التي
كان ينتمي اليها ، بنت الطبقة الوسطى ، التي كانت
متميزة عن بنات الارستقراطية الاقطاعية وكبار الملاك الذين
يغلب عليهم الانتماء التركي والشركسي والانتساب لعناصر
المتصرين .. والتي كانت متميزة كذلك عن بنسبات
الفلاحين .

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى
تعصبا لطبقته الاجتماعية ، ولا انغلاقا على عالم خاص به
من الناحية الاجتماعية ، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر
للأمة ككل ، وان غلبت عليه رؤية لونها انتماؤه الاجتماعي
.. ولكن مبعث هذا الاهتمام انه لم يكن يعلق أية آمال
على نساء الارستقراطية الزراعية ، فهن مثل طبقتهم
غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المصرية ، يعشن
كطبقتهم على هامش هذا المجتمع ، ولا صلة بينهما الا
صلة الاستغلال الاقطاعي واستنزاف ريع الأرض من
الفلاح .

اما المرأة الفلاحة والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف
.. فلقد رآها قاسم أمين عضوا عاملا في المجتمع وطاقه
منتجة .. صحيح انها لا تقرأ ولا تكتب .. صحيح انها
غير « متعلمة » .. ولكن انخراطها في الحياة العامة مع
الرجل ، وفي مساواة له ، قد جعلها « مثقفة » بالخبرة

والتجربة ، فهي ليست قيّدا على تطور المجتمع الى الامام ،
وان تكن لديها طاقات اخرى كامنة يستطيع التعليم ان
يطلقها من عقالها . . ان بينها وبين الرجل ، في طبقتها ،
مساواة الى حد كبير ! .

اما امرأة الطبقة الوسطى فانها كانت موضع أمل ، بل
عليها - مثل طبقتها - تعلق الكثير من الآمال في قيادة
نهضة الأمة وتطورها . . ومع ذلك فهي وان « تعلمت »
الا أنها بمقاييس « الثقافة » دون امرأة الريف والحرفيين
والتجار - فهي الطاقة المعطلة حقا وتاماما من بين النساء
اللاتي تتعلق بهن آمال المصلحين . . . ومن ثم فان اتخاذ
قضية تحريرها محورا لقضية تحرير المرأة عموما هو امر
له ما يبرره ، خصوصا من مصلح مثل قاسم أمين .
ونحن نستطيع ان نتأكد من صدق تحليلنا هذا اذا قرأنا
بعض عبارات قاسم أمين .

فهو في المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة
يقول : « تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير
محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن الا في الملبس والحلي . بل
يمكن ان يقال : انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر
زاد جهلها ، وان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهي التي
تسكن الأرياف ، هي اكملهن عقلا ، بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ،
مداركهما في مستوى واحد ، لا يزيد احدهما عن الآخر
تقريبا . مع اننا نرى المرأة في هذه الطبقات تربت عقولهم
واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم في هذه
الحركة ، بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر
سبب في شقاء الرجل والمرأة معا » (٧٣) .

(٧٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٥ .

ثم يعرض لذات القضية ، وهو يتحدث عن «الحجاب» ، فيقول :

« وإذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب ، على وجه لا يبقى للريب معه مجال ، فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم ، فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب « البيانو » ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة ، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وان الثانية ، مع جهلها ، قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها ، وان كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى ! » (٧٤) .

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم يفدها الثقافة والمعارف والخبرات .. بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف والخبرات الخاصة بالحياة من العمل .. وما ذلك إلا لأن الأولى تعيش مجتمعا انفصاليا عزلها فيه الحجاب عن مصدر المعرفة الحقة ، بينما تساوت الثانية مع رجل طبقته ، فخاضا معا غمار الحياة .

تلك هى أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية .. وآراؤه فى اصلاح أمرها .
وهذه هى المرأة التى من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير .

(٧٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٧ .

في التمدن الإسلامي

(يجب أن نرجع إلى التمدن الإسلامي القديم ،
لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه ،
بل لأنه يحتوي على كثير من أصول حالتنا الحاضرة
.. لقد انتفعت به الانسانية ، واستكملت ما كان
ناقصا منها في بعض ادوارها .. ولكن كثيرا من
ظواهره لا يمكن ان يدخل في نظام معيشتنا
الاجتماعية الحالية .

ان علينا ان نزنه بميزان العقل ، ونتدبر في اسباب
ارتقاء الامة الاسلامية واسباب انحطاطها ، ونستخلص
من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم
وفي ما يستقبل من الزمان .
وعلى ذلك ان نربي اولادنا على ان يعرفوا شئون
المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها
وانبارها ..)

قاسم أمين

تعنى « بالتمدن الاسلامى » ، هنا ، تلك الآراء
والنظرات التى ابداهها قاسم أمين عندما عرض « للدين »
الاسلامى ، و « الحضارة » الاسلامية ، وموقفه من
القضية الهامة التى طرحت فى عصره عندما اختلف الناس
فى الاجابة على سؤال : هل نعود - ونحن ننهض ونستيقظ
- الى منابعنا الاسلامية نستوحىها ونحتذيها ؟ أم نجعل
وطننا قطعة من أوروبا فكريا وقيما وحضارة وعلمًا
وعملًا ؟ .

وقاسم أمين لم يكن مصلحا اسلاميا ، وخلفيته الفكرية
الاسلامية لا تؤهله لأن يكون كاتبًا اسلاميا فضلا عن أن
يكون مصلحا اسلاميا . . بل ان طبيعته الخاصة وتكوينه
الذاتى كانا يتأيان به عن ان يكون الكاتب المتخصص
والمهتم بأمور الدين ، ولكنه كان ، مع ذلك ، غيورا
على الاسلام ، تستفزه حملات خصومه عليه تحت ستار
الحملة على المسلمين ، او حملات خصوم المسلمين عليهم
تحت اعلام الحملة على الاسلام . . ولقد كانت هذه
البضاعة رائجة فى عصره ، لأنه كان يشهد المد الاستعماري
الأوروبى على الشرق ، وهو المد الذى استعان على الفوز
ببعض أسلحة الفزوة الصليبية فى العصر الوسيط .

ولعل ذلك هو الذى جعل أغلب حديث قاسم أمين فى الاسلام ، ودفاعه عنه يأتى فى كتابه « المصريون » الذى رد به هجوم دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين . . وفى هذا الكتاب يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

« لست أحب الخوض فى حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتى الخاصة ، وبحرصى على مراعاة اللياقة العامة ، غير أن على فى هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل اننى لاكاد أعتقد أنه هو الذى كان حافزا على وضع كتابه ، ولهذا فأنى استأذنه فى أن أخصص له بدورى عدة سطور » (٧٥) .

ونحن اذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الاسلامية فاننا نستطيع ، فى نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلورتها فى عدد من النظرات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه الصواب .

١ - فهناك ذلك التقييم الذى قدمه قاسم أمين لشخصية الانسان المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضارى ، وهو تقييم نختلف معه فيه ، ونراه قد تخلى ، وهو يخطئه ، عن عنصر هام من عناصر منهجه الاجتماعى . . فهو فى المنهج يؤمن بوحدة القوانين التى تحكم التطور فى الظواهر الطبيعية والاجتماعية والانسانية ، ويؤكد - كما سبق وعرضنا - على أن القوانين التى حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورفيها لا بد لها وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين . . ولكنه فى نظراته الاسلامية سلك سبيلا مناقضا لمعطيات هذا

(٧٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٦ .

المنهج فتراه يقدم للشخصية الاسلامية صورة تتبدى لها فيها قسّمات خاصة تجعلها عصية على التقدم والتطور والارتقاء ، وتجعل منها نسيجاً انسانياً مختلفاً اختلافاً جذرياً عن غيرها من الشخصيات ، فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية الى ما هو أدخل في التفاير « الطبيعي » بين المسلم وغير المسلم .

والذي نعتقده سبباً في ذلك ، هو ان قاسم أمين قد جعل ما هو « واقع » « طبيعي وأبدى » وليس « عارضا » يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها .

فهو ، مثلاً يقول : « ان للمسلم أفكاراً عن كل شيء تختلف عن أفكار الأوروبي عن هذه الأشياء ، حتى ان ما يلائم أحدهما لا يلائم الثاني الا نادراً » (٧٦) .

وانطلاقاً من هذه المقولة يصور « شخصية المسلم » تصويراً يضع يدنا على ملامح « شخصية صوفية » متواكدة وانعزالية ، لا تربطها أية روابط بالواقع في الحياة ، حتى ان أحدنا اذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة في نفسه أو جيرانه ، بل وفي ذوات جماهير الناس في عصر قاسم أمين ، فانه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين . . . ويكفى لتبيان صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم ، حيث يقول :

« المسلم : أولاً لا ينتظر سعادته في هذه الحياة ، ان له ، أيا كان فكره ، عالماً خيالياً تذهب اليه أحلامه طواعية ، ويفضله على الواقع مهما كان ساخراً ، فهو ، عامة ، لا يبالي كثيراً بكل ما يجتذب الأوروبي ويستحوذ على مشاعره . واذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض

(٧٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٥ .

السحرية الجذابة ، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكانا كبيرا في حياة الغربيين ، فانها قليلة التأثير على وجدان المسلم .

وكما ان المسلم ، عامة ، لا يقدر السعادة التي يبحث غيره عنها في هذا العالم ، فانه لا يؤمن بإمكان تحقيقها على الارض ، ومن هنا يعتكف في عالم احلامه التي تمثل به المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بتسفل فكره ، عزوفا عن الثروة وألقاب التكريم ومنابع اللذة التي يعدها أشياء عابرة خادعة كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم ، وهذا ما يجعله يبدو جادا صموتا سوداوى المزاج .

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ومساءلته عن وسائل الاداء ، ويهرب من العالم ، لأنه يعد اغراءاته حافلة بالمخاطر ، ولا يهوى كثرة الكسب حرصا على ضمان شرف الوسائل ، وهو في الواقع يحمل احتقارا عميقا لهذا المعدن الخسيس - (الذهب - النقد) - ولعله لهذا ينفقه دون ندم ، وقد ضاعت ثروات كثيرة من المسلمين في اندفاعهم لنجدة اخوانهم ، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود ؟ .. واذا كان كثير من المسلمين يقترضون بالربا ، فلست أعرف مسلما واحدا يقرض ويأخذ ربا على ذلك . ولعل الشيء الذي لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى في اللذة الجنسية الا اشباعا سـفـيفها لاحدى الحاجات الجسدية ، حتى ان فنون الهوى التي ابدعها العشاق العباقر ، والتي يهتم بها الغربيون ، لا تحدث اثرا في نفوس المسلمين الاتقياء ! « (٧٧) .

هكذا صور قاسم « الشخصية العامة » « لعامة »

(٧٧) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

المسلمين . . . وهى صورة أقل ما يقال فى نقدها : انها اخذت ما هو جزئى ونادر وشاذ فجعلته عاما وصورته على أنه القسمات الأساسية للشخصية الاسلامية ، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون بصورة يرسمها « سائح » عابر سبيل ، رغم أنها قد جاءت فى كتاب يرد به قاسم على « سائح » وينتقد فيه منهج « السائحين » فى رسم الصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التى فيها يسيحون ! .

٢ - اما الاسلام ، كدين ، فان فهم قاسم أمين له كان فهما بسيطا وجيدا فى ذات الوقت . . . فهو يرى ان الكثير مما أضيف الى الدين ، بمرور العصور ، الدين منه برىء ، فالجانب « الدينى » فى « الحضارة الاسلامية » محدود ومحدد ، لأن الاسلام ، كدين ، عند قاسم أمين ، هو حركة اصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التى سبفته الى الظهور ، وبعبارة هو : « يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت دينية بأقل مما كانت سياسية ، فمن وجهة النظر الدينية البحتة ، أراد النبى ، ببساطة ، اصلاح المسيحية ، بانقاذ وحدانية الله التى غرقت فى الثالوث الغامض والعصى على التفسير ، كما أراد ادانة الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والافريقية » (٧٨) .

هكذا ، ببساطة وعمق ، الاسلام كدين .
وعلى الذين يلتمسون هذا الدين البسيط أن يذهبوا الى مصدره الأوثق : القرآن ، ثم الى قلة من الأحاديث الصحيحة التى تجمع عدة شروط : شرط الصحة رواية

.. وشرط تعلقها بأمور الدين ، بأن تكون تفسيراً لمجمل
فى القرآن مثلاً .. وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح
آياته .. أما ما عدا ذلك من الأحاديث ، حتى ما صح
منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شئون الدنيا ، فهو
ليس من الدين .. ذلك « ان أقوال النبى لا تشكل جزءاً
من الدين ، ومن الطبيعى ان ننحى من هذه الأقوال تلك
المحادثات الأليفه والنصائح الخلقية ، والحكم الفلسفية
التي تتضمن ، دون شك ، نصائح قيمة ، ولكنها لا تشكل
التزامات وواجبات دينية .. كما يجب ان ننحى ايضاً
كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع ، وتبقى بعد ذلك
الأحاديث القليلة التي تفسر أو تكمل التوجيهات التي
يتضمنها القرآن الكريم ، والتي لا تعد جزءاً من الدين
الآ بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع
نص القرآن أو روحه .. » (٧٩) .

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم
والعلماء ، حتى من اختلف مع أصوله ومعانيه ، اذ
« لم يحدث فى أية لحظة من تاريخ ديننا الاسلامى ان
ثارت حرب ضد العلم ، وقد عانى من اشد النظريات
مادية ، فلم يسىء أبداً معاملة واحد من العلماء ، وقد
اذن لكل المعتقدات ان تحيا جنباً الى جنب » (٨٠) .

ومن هنا ، ولهذا الفهم المستنير الذى فهم به قاسم
أمين الدين الاسلامى ، كانت اشارته الهامة الى تلك
الامكانيات الغير محدودة المفتوحة أمام انتشار الاسلام فى
أوروبا .. فالنهضة والاستنارة والعقلانية التي سادت
وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع أهلها الا دين

(٧٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٦ .

(٨٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٥ .

يُشْفِرُ بهذه البساطة والعقلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد في الفيبات .. وهذا الدين هو الاسلام .

ولقد كان قاسم أمين ، برأيه هذا ، يشارك عددا من المستشرقين والأوروبيين الذين دخلوا الاسلام ، وآخرين منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا ان الاصـلاح الدينى البروتستانتى هو استعارة واستفادة جزئية من روح الاسلام وتعاليمه ، وان خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سيدفع بمستنيرها شيئا فشيئا الى الاسلام .

أما عباراته التى صاغ فيها فكرته هذه فهى التى تقول :

« اننى أبعد ما أكون عن التعصب ، غير اننى أعتقد ان الاسلام هو افضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة فى عقيدة واحدة ، ذلك ان الاسلام ببساطته ، وباختفاء الصوفية من نصوصه ، وبإيجابيته الخلقية ، وامكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات ، وبتسامحه الكبير الذى يتميز به ، يجمع ، فى رأى ، مؤهلات تكفى لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله . وذلك هو ما أعتقد انه الحلم الذى كان يطمح اليه القرآن ، والذى أوشك أن يتحقق فى احدى اللحظات ، ذلك انه دين الفطرة فى شكله البسيط ، المؤهل لارضاء الجزء الأعظم من البشرية التى لا تستطيع ، رغم كل شيء ، أن تقبل الحياة دون أن يعيش فى وجدانها أمل خيالى رائع ! (٨١) ... ان الاسلام الذى ظل طويلا يمثل القوة والنور فى العالم كله ، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة ، وأن يعيد ايقبـاد

(٨١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٨ .

الشعلات المنطفئة ! .. » (٨٢) .
هذا عن الاسلام كدين .

٣ - ويدرك قاسم أمين كيف شوه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الاسلام .. وهذا الواقع البائس يتمثل عنده في « الفقهاء ورجال الدين » .

صحيح ان الاسلام ليس به « سلطة دينية » ، ومن ثم فليس به ما يسمى « رجل الدين » ، وكما يقول : « فاننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التي تسمى الكنيسة ، وليس هناك شيء يمثل السلطة الدينية وسطنا . ان كل مسلم هو نفسه سلطان روحه . وليس لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية ، وليس لهم من السلطة الا ما نعرف به نحن لمعارفهم » (٨٣) .

ولكن هذا المبدأ الاسلامي الجوهرى الرائع شيء والتطبيق الواقعى شيء آخر ، فكما قلدنا الأمم والديانات الأخرى في أمور كثيرة ، قلدناهم في ظهور فئة من «علماء» الدين ، امتهنوا الدين مهنة ، فتحولوا ، عمليا الى « رجال » دين ! .. ثم كان لهم ، تاريخيا ، الدور المعوق للتقدم الحضارى للمسلمين كما يقول قاسم أمين مصورا الدور السلبي الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا الحضارى .. « فلقد أسست المدنية الاسلامية على الأساس الدينى والأساس العلمى .. ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لا يؤيد أكثرها بشيء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بأنفسهم فى

(٨٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٣٨ .

(٨٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٦٠ .

المسائل العلمية ، وانتقدوها . . . وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نهر الكل من دراسة العلم وهجروه . وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطنة الا العلوم الدينية ، بل غلوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية نفسها انها لا بد أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقررروا أن ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لأحد أن يخالفه ! » (٨٤) .

وإذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحى حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وفعل فعله في عدد عديد من الدوائر الفكرية ، فلقد ظل انتخلف والجمود طابع الكثير من فقهاءنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الدينى الرسمية . . وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء عندما يقول :

« . . . ذلك هو الحال الذى تردى فيه بعض شيوخنا ، الذين كان عليهم أن يقدموا لنا وصفا تفصيليا عن السماء والجنة والنار توحى لنا دقته بالايمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية ، بينما هم يجهلون كل شيء عن الأرض ! . . وليس فى هذا ما يثير الدهشة ، ذلك انهم بدلا من أن ينظروا الى العلم السماوى بوصفه قمة جميع العلوم ، نجدهم لا يجمعون المعارف الأولية التى يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية ، ولا يوسعون أبدا نطاق دراساتهم ، ولذلك فان هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة ناطقة ، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليم ، وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها ، وينصبون من انفسهم حماة الرسالة النبوية ،

(٨٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠٤ .

ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقسائه وحسن تطبيقه . . ان هؤلاء ليسوا الا ادعياء شديدي الوقاحة ، يخنفون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث ، ويدسون الوصايا الزائفة ، ويبتكرون الحيل للافلات من قسم او التحرر من أحد الواجبات الدينية . . . اننى اعلن ، مع ذلك ، ضرورة ادخال اصلاح محدد يتمثل فى تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعارف منطقية وعلمية ، حتى يستطيعوا بوساطة التعليم ان ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التى تهدد بخنق الدين ، وان يرشدوهم الى طريق العودة الى بساطة قواعد الاسلام الخمسة ، فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الاسلام فى جميع ارجاء العالم ، وما نزال وحدها قادرة على انقاذه من كارثة مدمرة . . « (٨٥) .

٤ - اما الحضارة الاسلامية ، وبالذات التنظيم السياسى فى هذه الحضارة ، فلقد اختلف ازاءه موقف قاسم امين ، او تغير وتطور فى تقييمه لهذا الجانب من جوانبها . . ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتى بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كبديل للتخلف وايضا كبديل للأخذ بالنمط الأوروبى الذى جاء الى الشرق فى ركاب الغزاة ؟ .

فنحن نلمح قاسم امين فى مرحلة كتبه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يميل الى وجود « تنظيم ونظام سياسى اسلامى » ، كقسمة فى حضارتنا الاسلامية ، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم الى تطابق نظامهم السياسى مع تعاليم دينهم ، فلما أهملوا تعاليم الدين انهار كل البناء . . فالعيب هنا ، كما يراه ، ليس فى النظمات

(٨٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٨

السياسية .. فهو يقرر « أن المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسي اسلامي ، وخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقتين مع الاخلاقيات والوصايا الاسلامية التي بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا عنها . ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم الاسلامي لوضعت اهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك .. » (٨٦) .

ولكنه يرجع عن هذا الراى فى مرحلة كتابيه « تحرير المرأة » سنة ١٨٦٩ م و « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م فينكر أن يكون المسلمون قد عرفوا النظمات السياسية أصلا فى مجتمعاتهم وتاريخهم ، ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمرأة فى تاريخهم الى افتقادهم هذه النظمات .. فيقول مثلا :

« تجردت الجمعيات الاسلامية - (اى المجتمعات) - على اختلاف الأزمان والأماكن من النظمات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام ، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما .. وأساء حكامها فى التصرف .. بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ، ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبيتهم .. » (٨٧) .

ثم يعود الى تقرير الفكرة فى مرحلة تالية ومكان آخر فيقول :

« .. واما من جهة النظمات السياسية ، فأننا مهما دققنا البحث فى التاريخ - (الاسلامى) - لا نجد عند

(٨٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٦ .

(٨٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٦ .

اهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاما ، فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم موظفين غير مقيدين ربما يقال : ان هذا الخليفة كان يولى بعد أن بايعه أفراد الأمة ، وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر .

ونحن لا ننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب الا بضع دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر .

ومن الغريب ان المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظمات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها ، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى إدارة شئونها .

وأغرب من هذا ان أمراء المسلمين وفقهائهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا انها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعذيب الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء ، مع ان بيان الجرائم وعقابها هو من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا ان أقول : انهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . . . فاذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟! « (٨٨) » .

ونحن نعتقد ان هذا التقييم الذى اعطاه قاسم أمين لقسمة النظمات السياسية فى حضارتنا هو تقييم ظالم

(٨٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وغريب قد جانب صاحبه الصواب .. كما نعتقد أن أهم الأسباب التي تكمن وراء ذلك هي :

أ - أنه لم يفرق ويميز بين « الحضارة » وبين « التاريخ » .. ففي حضارتنا فكر سياسي ، وضع قواعد للشورى ، وأشار إلى هيئات تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه ، وحدد قواعد الفصل بين السلطات ، وأعطى توصيفا وتحديدا رائعا للجرائم والعقوبات .

ويكفى أن ندل على خطأ قاسم أمين ، هنا ، وهو ينفي أن يكون المسلمون قد وضعوا قانونا يحدد الجرائم والعقوبات ، بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الاسلامي ، عندما أشار في كتاب « المصريون » إلى أصالة هذا الفقه ، ووصفه بأنه « أعظم نصب إقامة العقل البشري » ونفى أن يكون منقولا عن القانون الروماني ، وأكد « أنه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول » (٨٩) .

لكن قاسم أمين نظر في « التاريخ » ، والتاريخ السياسي بالذات ، فوجد قسمة الاستبداد الفردي بالحكم تغطي المساحات الشاسعة من قرون الحكم الاسلامي والبلاد الاسلامية ، ثم هو لم يميز بين تراث هذه الأمة الحضاري وابداعها في السياسة والنظم السياسية والتشريع وبين حيولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق .

ب - لم يلتفت قاسم أمين إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التي استمرت طوال عصور التاريخ الاسلامي تجاهد كي تضع في التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرية في القانون والشورى والعدل الاجتماعي .. ولو أنه التفت إلى دراسة هذه

(٨٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣١٩ .

القسمة لراى أشياء أخرى مشرقة تقف أنى جانب ظلمات الحكم الاستبدادى الذى عرفه هذا التاريخ .

ج - وأخيرا .. فلو أتاحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة فى الفكر الاقتصادى ، وما كتبه علماءها فى (الأموال والخراج) لراى جذورا عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحا نحو العدل والانصاف ، ولما قال : ان المسلمين « لم يعرفوا شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ! » .

بل لو قد أطلع على قوائم عناوين تراثنا فى الفكر السياسى والاقتصادى - قوائم العناوين فقط - لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام ؟!

د - أما قسمة « الفكر الاجتماعى » فى الحضارة الاسلامية والتمدن الاسلامى فان قاسم أمين يعجب بها كل الاعجاب ، كما ان رؤيته لها تستحق هى الأخرى منا التقدير والاعجاب .

فهو يرى ان الاسلام يتميز بالانحياز الى « نوع من الجماعة » و « الاشتراكية » قد أقامه على رفض « الفردية » التى أشعلت بفضاء الصراع الطبقي فى المجتمعات الأوروبية ، وعلى استبدال هذه « الفردية » بتقرير « اشتراك » الفقراء فى الأموال التى هى فى حوزة الأغنياء .. وبسبب من هذه الفلسفة التى هى محور الموقف الاجتماعى للاسلام فان « العمل » هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادى ، وان الشعار - الاشتراكى - القائل : « من كل حسب عمله » ، هو شعار اسلامى تماما ومقبول من المسلمين بالتأكيد .. وبسبب من هذه الفلسفة أيضا فان الاسلام يرفض الحواجز الطبقيّة التى عرفت بها وتعرفها المجتمعات التى

فرقتها الملكية. والامتيازات الى طبقات ثابتة ، كما يرفض ان تكون الوراثة أو الثروة معيارا يحل محل العمل في كسب الجاه و النفوذ .

« فالاسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد أو الثروة . وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام . . فليس من العدالة ان تكون صدفة الميلاد في احدى البيئات مصدرا لوضع متميز . . لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين ، والقائل : (من كل حسب عمله) وسبقني ، دائما شعارنا ، اننا جميعا أبناء أعمالنا . . لقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء . وهذا - كما هو واضح - حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية .

أولا ترى في مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح ، وما يهدى جميع الخواطر ؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سموا وأقرب الى الواقع العملي من تلك النظم التي تتحدث عنها أوروبا ، والتي يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها ؟ . . انني أشهد في أوروبا نفوسا حائرة ، وعقولا قلقة ، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ، ويصرخ الفقراء ، وتترأى أعراض زلزال هائل رهيب . . ان أي مجتمع اسلامي لا يمكن أن يقوم الا على تنظيم ديمقراطي ، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والاخاء . . ولا يعبأ بأداب المجتمعات الشكلية ، في أوروبا ، والتي تفصل بين الأغنياء والفقراء ، بين النبلاء والعامّة . فالكل داخل في الكل ، وامتزاج الطبقات كامل .

أو يمكن بعد أن يعرف الانسان كل ذلك أن يتذوق

شيئا آخر ويحبه ؟! » (٩٠) .

فهو هنا لا يسوى بين « جماعية الاسلام واشتراكيته »
وبين نظيرهما في الفكر الأوروبي ، بل يميز بينهما ،
ويفضل المنطلق الاسلامي لتنظيم المجتمع على أساس من
فلسفته - فلسفة الاسلام - في هذا الميدان .

٦ - وأخيرا . . نأتى الى تلك النقطة الهامة في فكر
قاسم أمين عن « التمدن الاسلامي » . . والخاصة
بالموقف من « نوع » الحضارة التي يدعو اليها قومه ،
ويحبد أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف « المملوكي -
العثماني » ، ويشير باعتمادها نمطا للتقدم والتطور .

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمرارا لعصر اليقظة
والنهضة والتجديد الذي بدأ منذ مطلع القرن التاسع
عشر . . ومعلوم كذلك أن دعاة النهضة كانت تتوزعهم
دعوتان أساسيتان :

الأولى : ترمى الى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملا ،
وتستهدف جعل مصر - ومن ثم الشرق - قطعة من
أوروبا .

والثانية : ترمى الى الاستفادة من « أدوات » النهضة
والحضارة الأوروبية ، مع جعل منطلقاتنا عربية اسلامية ،
وطابعنا عربيا اسلاميا ، وبناء حضارة عربية اسلامية
معاصرة ومتطورة ، تتميز كثيرا عن حضارة الأوروبيين .
ولقد بدأ قاسم أمين ميالا ، وإن يكن في تردد شديد ،
الى التيار الثاني ، ثم عاد فانخرط تماما في سلك دعاة
التيار الأول .

فهو في مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يقارن
بين الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الاسلامية ، ثم

(٩٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٢ .

يحكم بأن الظفر انما هو من نصيب الحضارة الاسلامية
الأصيلة .. يقول : انه « اذا كانت توجد اليوم حضارة
اسلامية خالصة الى جانب الحضارة الأوروبية ، فان
الأصالة هي الظاهرة ! » (٩١) .

ثم يعود فيتردد في الاختيار بين الحضارتين ، وخاصة
عندما يكون المقام خاصا بالحديث عن « الاختبارات »
والبدائل المطروحة أمام النهضة المصرية .. يتردد ، ولكنه
ينبه الى أن مصر قد اختارت ، بالفعل ، النمط الأوروبي ،
وان العودة عنه تكاد تدخل في عداد المستحيلات ..
ذلك ان امام مصر « طريقان : العودة الى تقاليد الاسلام ،
أو محاكاة أوروبا . وقد اختارت الطريق الثانى .

وليس على ان أحكم على جدارة هذا الاختيار . لقد
مضت في اثر حركة الحضارة الأوروبية التى تجتاح كل
مكان ، والتى تبدو استحالة مقاومتها .. انها قد خطت
اليوم بعيدا فى هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد
عنه ، ان مصر تتحول الى بلد أوروبى بطريقة تثير
الدهشة ، وقد أخذت ادارتها وإبنيتها وآثارها وشوارعها
وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغداؤها وثيابها تتسم
كلها بطابع أوروبى ، انها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو
تفعله ، وتجذ كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا صداها
هنا .. » (٩٢) .

وفى مرحلة كتاب « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م
يحسم قاسم أمين هذا التردد ، وذلك عندما يقرر ان
التمدن الاسلامى ليس فيه ، حضاريا ، ما يصلح للعطاء
المعاصر ، وان دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة

(٩١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٥ .

(٩٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٦٣ .

التاريخية ، للتقييم ، وكشف الجذور ، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تتكرر . . اما طريق اليوم والفد فلا علاقة له بهذا النمط الحضارى الذى ساد فى تلك العصور . . يقول :

« انه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الاسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه ، لأنه يحتوى على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصا منها فى بعض أدوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . . . يجب علينا أن نلتفت الى التمدن الاسلامى القديم ، ونرجع اليه ، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء ، بل لى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى اسباب ارتقاء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان . . » .

ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يقول :

« أن تمسكنا بالماضى الى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا الى التذنى والتقهقر ، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا الا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلامنا يناجى نفسه قائلا لها : اتركى الفكر والعمل والعناء ، واستريحى فليس فى الامكان أن نأتى بأبدع مما كان ؟ .

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر الى علاجه ، وليس

له من دواء الا ان نربي اولادنا على ان يعرفوا شئون
المدنية الفريية ويقفوا على اصلها وفروعها وآثارها!«(٩٣).

تلك هي افكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه « التمدن
الاسلامى » .. وهى افكار ونظريات جمعت بين ما هو
خطأ وما هو صواب ، وشهد بعضها تطورا من الصواب
الى الخطأ أو من الخطأ الى الصواب ! .

(٩٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠٥ . ٢٠٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٩ .

مصر..

والمصرية..

والمصريون

(ان المصريين - مسلمين واثباتا - ينتمون الى جنس واحد .. والمصري لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير انه يحتمل بعض الاهانات ، لان السلطة افقدته وعيه حتى ظن انه مخلوق لمعاناة نزواتها ! .. انه لا تنقصه القوة الجسدية ، ولا الطاقة المعنوية .. ان ما يحتاج اليه هو النهوض والتوجيه السليم لكي يصبح قوة عظمى ..

وليس يباح لانسان يحترم نفسه ان يخجل من وطنه ، ولا ان يغضب عليه الا كما يغضب الولد من ابيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو ..)

قاسم امين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متحد . .
فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة ، لأن
المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا وليسوا وأفدين من
شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين
أو سيئى النية ! .

وهو يؤمن كذلك ان اختلاف المصريين فى الدين لم
يكن له تأثير فى يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية
الراسخة ، تلك الوحدة القائمة على قسما الوطنيه
بمعناها الحديث والمصالح الوطنيه الواحدة التى تجمعهم
جميعا بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات . . فعنده ان
« من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن ،
وخاصة فى الريف ، ليسوا من نسل العرب ، وليسوا عربا
الا باللغة والدين ، وتكفى ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس
النماذج القبطية ، واننى أومن - وهو ما تؤكد الملاحظة
ايضا - ان المسلمين المصريين ليسوا الا أقباطا اعتنقوا
الدين الاسلامى .

ويشكل المسلمون والأقباط - رغم اختلاف الدين -
كلا متناسقا يتحدث نفس اللغة ، ويرتدى نفس الثياب ،
ويمارس نفس العادات . ولم يحدث قط منذ بداوا

يعيشون معا جنبا الى جنب ان وقع بينهم خلاف جاد .
لقد ربطت المآسى المشتركة بينهم بعاطفة وطنية ، جعلتهم
يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق الاختلافات الدينية ،
ويكفى ان نذكر هؤلاء الذين يتمنون قسم وحدتنا ، بان
الاقباط اثناء ثورة عرابي كانوا يسرون مع المسلمين يدا
فى يد ، وانه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك
القلق فى قلب قبطى ، بينما وصف المسلمون الأتراك
والشركس بأنهم أعداء مصر ! » (٩٤) .

فنحن هنا بازاء شعب واحد ، تربط أبنائه جميعا
روابط الوطنية بمعناها الحديث .

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التى شهدتها
مصر منذ حكم محمد على فى تكوين هذا « الوطن »
المصرى الحديث .. ففى ظل هذه النهضة قامت « الدولة
المدنية » الحديثة ، وبرزت « حقوق المواطنة » لكل
المصريين كرباط يعاوى على غيره من الروابط الاعتقادية ..
وفى ظلها كذلك أطلق العنان ، الى حد كبير ، للسلطات
الانسان المصرى فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضارى
العريق فى كل الميادين .. وبسبب كل ذلك عرف الانسان
المصرى معنى الافتخار الوطنى والاعتزاز بالوطن ، مما
جعله يقارن نفسه ووطنه بأرقى الاوطان دون أن تحول
عقد النقص بينه وبين الاعتزاز بمسما له من طاقات
وما أحرز ويحرز من انجازات .

« .. فى يوم تشكل الوطن المصرى ، أو وطن المصريين
على يد محمد على الطيبة ، لم يبخل المصريون بدمهم
فى سبيل أن يضفوا على وطنهم أروع بريق ممكن ..
ان المصرى ليس جبانا البتة ، وانه لا يهرب الموت

(٩٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ولألآلام ، غير أنه يحتفل بعض الإهانات ، لأن السلطة أفقدته وعيه ، حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها . انه لا تنقصه القوة الجسدية ، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية ، ان ما يحتاج إليه هو النهوض ، والتوجيه السليم لكي يصبح قوة عظمى » (٩٥) .

وان تلك الإهانات والمظالم التي توقعها السلطة الجائرة بالإنسان المصري ، يجب — في رأي قاسم أمين — ان لا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن أدراك الجوهر الحقيقي والرائع لذلك الإنسان المصري الأصيل .. فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام ، ولكنه أبدا لا يغيب ولا يذوب ولا يزول .. « صحيح أننا ما تزال نعرف شقاء كبيرا في ريفنا ، فالفلاحون والأطفال يعيشون في حالة حرمان من النظافة وفي أملاق مثير للشفقة .. غير انه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفا دائما ، بفضل الضوء خمس مرات كل يوم ، وغالبا ما تشمخ فوق هذا الجسد — كما تشمخ الزهرة — رأس ذكية ! » (٩٦) .

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين الى أن يدعو قومه الى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف اصلاحه وتطويره ، وما بين ذلك النقد الهادف الى الاستعلاء على الوطن والبراءة من الانتساب الى « المصرية » .. فقال قولته الرائعة :

« انه لا يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ،

(٩٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٩٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٦ .

ولاً ان يغضب عليه الا كما يغضب الولد من أبيه غضبا
مزوجا بالأسف والحنو ! » .

وهذا « انقضب » يعنى عنده ان ننهض نحن « بانتقاد
عيوبنا بنفسنا ، وعدم اخفاء شيء منها ، حتى لا نفعل
عن تلافيتها ، اذ ذلك أولى من ان يلقيها يوما في وجهنا
عدو لنا ! » (٩٧) .

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن
وأهله ، محتجين بان لهم اصولا - تركية أو عربية - غير
مصرية فان قاسم أمين يسخر منهم ويهاجمهم ، ويراهم
خارجين على الواجب الذى يقتضى احترام جوهريات
القومية وقسماتها الأساسية .. يقول : ذلك « لان أهم
شيء يحفظ الأمم ويزيد رفعة شأنها هو احترام جملة
أمورها الجوهرية الأساسية ، مثل : الدين ، والوطن ،
والسلطة العمومية ، والعائلة ، والعلم ، والفضيلة ، وكل
عمل شريف أو جميل أو نافع ... »

ونحن معاشر المصريين ، ويا للأسف ! ، لا نحترم
وطننا ، ولا نعرفه ، وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار
ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن
يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال . وفاتنا ان كل عيب
منسوب له هو منسوب فى الحقيقة لنا ، حتى ان كلمة
(فلاح) ، التى كان الأتراك يستعملونها فى مقام الذم
عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى ، اتخذها
المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا .

ومن هذا القبيل أيضا نرى بعض الأشخاص الذين
ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها ، بعد ان ترك
أجدادهم بلادهم ، ولم يبق لهم أمل فى العودة اليها ،

(٩٧) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٤ .

يجتهدون دائما أن يثبتوا انهم من أصل تركي أو سوري أو عربي ، ولا يكادون يعترفون — وخصوصا أمام الأجانب — انهم من أبناء البلاد التي يرتعون في خيراتها ويعيشون من نعيمها .

ويديهي ان المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه ! « (٩٨) .

وهذا الحس المصري الصادق الذي تميز به قاسم أمين ، لا تجد فيه شائبة تشير الى أصله التركي — كما هو واضح من عباراته السالفة — بل انه يؤكد ان التعلق « بالتركية والأتراك » هو محض وهم ، لأن العناصر التركية التي استقرت بمصر قد ذبل دورها ، وفقدت دورها المستقل في المجتمع ، « فهذا الجنس قد انكمش الآن ، أو ذاب في المصريين » (٩٩) .

كما ان هذا الحس الوطني الصادق لم يجعله يتخذ الموقف « المتعصب » الذي ينكر مزايا الآخرين .. فهو يذكر لبعض الأوروبيين الذين خدموا مصر ، فضلهم في تنوير أهلها وخدمة مرافقهم ومشاركتها السراء والضراء (١٠٠) .

ويذكر للأتراك — رغم مأساة احتلالهم للبلاد وظلمهم لأهلها — ما استفادته منهم « الأمة المصرية » ، فلقد وجدت فيهم انسانية راقية ، فاقبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة : النظافة ، وترتيب المسكن ، والتفنن في

(٩٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٩٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .

(١٠٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .

الملبس والمأكل ، وكثيرا من العادات الحسنة والصفات
الأدبية .. » .

ويلفت النظر الى ظاهرة تفضيل المصريين الزواج من
التركيات ، ويرجعه الى نظافة المرأة التركية وذكائها
وكفاءتها كزوجة (١٠١) .

وكما وجه نقده لنفر من المصريين المنحدرين من أصول
غير مصرية ، والى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم
الأول « جمع الثروات فى أسرع وقت ممكن والرحيل
بها بعد ذلك » عن مصر ، دون أن « تجتذبهم الحركات
العلمية والأدبية » تراه كذلك قد تنبه للدور « الطفيلى »
الذى قام به اليهود فى استنزاف ثروة الوطن دون أن
يضيفوا اليه انتاجا يوازى ما يحصلونه من أرباح ، فيقول
عنهم : أن « اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان - (فى
مصر) - استفادة ، فهم - عدا استثناءات قليلة -
لا ينتجون شيئا ، ويجنون مع ذلك أرباحا كثيرة » (١٠٢) .

وهو بذلك يدرك وينبه الى حقيقة أنهم إنما يهتمون
بالكسب من المهن « الوسيطة » و « السمرة »
و « العمولات » ، ولا يقبلون على المخططة بتوظيف
أموالهم فى مشاريع الانتاج .

وبسبب من ذلك المفهوم الحديث الذى أعطاه قاسم
أمين لمصطلح « الوطنية » .. ولتحديده أن الوطن المصرى
قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلائقها فى ظل النهضة
الحديثة التى أقامتها تجربة محمد على .. لكل ذلك كان

(١٠١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٦٦ .

(١٠٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .

تقييمه لهذه التجربة أمراً يستحق منا التسماء بعض
الأضواء .

ويزيد ذلك الأمر أهمية أن قاسم أمين هو واحد من
مدرسة الامام محمد عبده الفكرية ، ولقد كانت لمحمد
عبده آراء فى محمد على وتجربته شوهت الكثير من
ايجابيات تلك التجربة ، بسبب ذلك الصراع الذى قام
بين الأستاذ الامام وتياره الفكرى وبين الخديوى عباس
حلمى والأسرة الحاكمة .. ومع ذلك فان قاسم أمين قد
قيم تجربة محمد على تقييماً ايجابياً ، وكان منصفاً فى
عرض منجزاتها الوطنية كل الانصاف .

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التى ظهر فيها
« الوطن المصرى الحديث » .. والمناخ الصالح الذى اظهر
الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطنى المصرى ..
ويرى فى القسمة الاستبدادية وحكم الفرد الذى ظل
يمارسه محمد على السلبية الأساسية التى شابت روعة
هذه التجربة الحضارية .

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر فى عهد محمد على ،
وبين ما اصاب هذه التجربة ، بعده ، على يد خلفائه
الذين فرطوا فى الميراث الفنى الذى خلفه لهم مؤسس
هذه التجربة .. وان كان لا ينسى أن يذكر للخديوى
اسماعيل فضله على التعليم والرى والانشاءات ، وانجازاته
الشورية والدستورية ، وهو الفضل والانجازات التى
غطاها التبدير وما جره على مصر من ديون خلقت التكة
للأجنبى كى يطمع فى احتلال البلاد .

كما استطرد قاسم أمين ، فى تقييمه تجربة مصر
الحديثة ، الى الحديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ -
١٨٨٢ م) ، فراها - وهو الاصلاحى الراض للثورة

كطريق للتغيير - خطباً دفع اليه تعجل الأمة تحقيق
الإصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد ! (١٠٣) .

انه ليكفى فى الدلالة على الموقف الإيجابى ، لقاسم
أمين ، فى تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه انه
قد حكم بالإدانة على كل فترات تاريخها ما بين عصر
ازدهارها زمن الحكم العربى الزاهر ، وهذا العصر الذى
قام فيه حكم محمد على .. وهو فى كل ذلك يقول :

« لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية
من كل البلاد ومن كل الأنواع .. فى الفترة الحزينة
المتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر
النهضة الذى افتتحه محمد على . لقد أخذت السلطة
منذ أيام محمد على تصبح أكثر انتظاماً واعتدالاً ، ففتحت
المدارس ، وانتظم التجنيد فى الجيش ، وانشئت الأساطيل ،
وتفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة ،
وأخذت تتطوّر جميعاً ، وحفرت القنوات ، وعبدت
الطرق ، وفى كلمة واحدة : أقيمت حكومة حقيقية .

صحيح ان بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب
من آن لآخر ، غير ان الناس كانوا سريعى المغفرة لمحمد
على ، وكانت الانجازات الطيبة التى يحققها والتى يريد
تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة ، وكان ينظر اليه كوالد
شديد القسوة ، لا يدرك الفارق بين التأديب واساءة
المعاملة ! .

وخلال حكمه الطويل تهاى المصريون لدراسة العلوم
والفنون ولحكم أنفسهم بأنفسهم ، وكانت التجربة فى

(١٠٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

صالحهم ولخيرهم .. وقد أدهشوا العالم الذي ذهل
وهو يراهم يحاربون بشجاعة وينتصرون ! .. (١٠٤) .

« ان مصر قد أيقظها - بعنف - من نعاسها الثقيل
رجل عظيم منذ نصف قرن ، وأذاقها رحيق العلوم ،
فأخذت تتمثله في نشوة ، ومن يومها وهي مقبلة على
التعليم ، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق ، وهي تتجه
اليه في خطى وثيدة ، ولكنها ثابتة ودؤوبة .. » (١٠٥) .



هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه
الوحيد .. وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التي نشأ
فيها « الوطن » المصري و « الوطنية » المصرية بمعناها
الحديث .. ولعل في نصوصه الواضحة والحاسمة التي
قدمناها هنا ما ينفي أية شبهات يحاول البعض القاءها
على هذا الجانب من تفكيره .

(١٠٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٣ .

(١٠٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٣٨ .

فن الوطنية

(ان التمدن الأوروبي يطأ بقدمه جميع انحاء
المسكونة ، ويستولى على منابع الثروة فيها ، بقوة
العقل او بالعنف .. واذا صادف امة متوحشة ابادها
او اجلاها عن ديارها .. واذا صادف امة كامتنا ،
لها نوع من المدنية ودين وشرائع واخلاق ، عاملها
بالمعروف ... لكن لا يمضى زمن طويل حتى تسرى
هؤلاء القادمين قد وضعوا ايديهم على اهم اسباب
الثروة . ولا سبيل امامنا للنجاة الا ان نستعد لهذا
القتال ، مستجمعين من القوة ما يساوى القوة التى
تهاجمها .

ان امام مصر عقبة رهيبة هي اوروبا .. لقد
حاربناها طويلا من اجل استعادة مكاننا فى
العالم ..)

قاسم امين

كان قاسم أمين واحدا من ابناء المدرسة السياسية التي تكونت من حول الامام محمد عبده . . يؤمن ابناءؤها « بالاصلاح » طريقا للتقدم والتطور ، ويرفضون « الثورة » . . ويعلقون الآمال على « الصفوة المستنيرة » و « النخبة المختارة » وليس على « انعامة والجماهير » . . وهذه « الصفوة » عندهم معيارها « الاستنارة الفكرية » ، وليس الوضع الطبقي والثروة المالية والجاه الموروث . وفي ظل الاحتلال البريطاني لمصر ، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لابد لمن يريد « الاصلاح » أن يتعامل معها ويدخل واياها في علاقات . . وبسبب من منهج « الاصلاح التدريجي » الذي اتبعته هذه المدرسة فانها لم تطرح قضية « الجلاء الفوري » للمحتل عن البلاد كشعار لها ، لانها كانت تؤمن بأن « الصفوة » التي لابد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعد ، ومن ثم كانت ترى أن « الجلاء الفوري » - حتى مع افتراض تحقيقه - سينقل السلطة الكاملة الى الخديوى - وهم يناوؤن حكمه وأسرته الى حد ما - أو الى الدولة العثمانية ، وهم ضد عودة سلطانها الى مصر ، لانهم يؤمنون بالوطنية المصرية والداتية المصرية المستقلة ،

وبعضهم يؤمن « بالقومية » المصرية بالمعنى العصرى والحديث .

ومن هنا مثلت هذه المدرسة ، فى السياسة ، تيارا معتدلا .. تهادن مع الاحتلال وتعامل معه ، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والاصلاحات العصرية التى أراد المحتل بتطبيقها تحقيق مصالحه ، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والاصلاحات فى تكوين هذه « الصفوة » المستنيرة ، ومناواة التيار الفكرى المتخلف والمنمسك بفكرية العصور « المملوكية - العثمانية » فى فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة .

أى أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطنى الداعى الى « الجلاء الفورى » .. وهو تيار مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) والحزب الوطنى .. وهو الذى كان أكثر شعبية وأقرب الى « الثورية » ، وأصدق فى التعبير عن الموقف الوطنى السليم .. كما تميزت كذلك عن فئة المستسلمين للاحتلال ، واليائسين من حصول مصر على الاستقلال ، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباطا التبعية والعمالة .

كان قاسم أمين واحدا من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة .. وان لم تكن السياسة ، بمعناها الشائع ، شغله الأول والأهم .

وهو يحدد بنفسه أنه من فئة « المعتدلين » عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعى نيابى حقيقى ، فيقول : لقد « باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم » تطلب قيام هذا المجلس ، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة فيقول : « غير أننا نود ، بالطبع ، نظاما

فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للسكم العددي ! » (١٠٦) .
ولقد فرض هذا « الاعتدال » على هذه المدرسة أن
ترفض أسلوب « الاثارة الثسورية » الذى استخدمه
مصطفى كامل فى بعث الروح الوطنية واذكائها فى نفوس
المصريين .. فكان محمد عبده يصف خطب مصطفى
كامل بأنها « نوبات صرع ! » .. كما نجد امتعاض قاسم
أمين من كثرة الحديث عن « الوطنية » ، ودخوله فى
كل شىء فى البلاد ، على حين ان ذلك - من وجهة نظره
- ليس ضروريا لاثبات حبنا للوطن اليوم ، كما لم يكن
ضروريا لاثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد .. « فمندا
الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟ ..
عاش آباؤنا ، وتعلموا ، واشتغلوا بالصناعة والتجارة ،
وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم ، ولم نسمع
عنهم أنهم كانوا يحبسون وطنهم ويتهمون خصومهم
بالخيانة . أما الآن فايما قرأت وفى أى مكان وجدت
لا أسمع الا : حب الوطن ، والفيرة الوطنية ، والتفانى
فى خدمة الوطن ، والجريدة الوطنية ، والمدرسة الوطنية ،
وحزب الوطن . والبيوت التجارية والمحال الصناعية
والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتربح
لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا ، من اعتنقه
ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع
فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا
مقبولا ؟! » (١٠٧) .

ونحن نود أن ننبه الى أن « خطأ » هذا الموقف
« المعتدل » فى السياسة وفى الوطنية ، يجب أن لا يختلط

(١٠٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(١٠٧) المصدر السابق . ج ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

« بالخيانة » و « العمالة » للاستعمار ، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحي هذه المدرسة الفكرية التي انتمى اليها قاسم أمين . . فهناك من الأدلة على « زيف » هذا الاتهام الكثير والكثير . . (١٠٨) . .

وإذا كانت هذه الصفحات ليست بالمسكان المناسب لتفصيل الموقف السياسى والوطنى لهذه المدرسة ، فإننا نهتم بأن نشر هنا الى موقف قاسم أمين من الصراع الذى شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار .

لقد أدرك قاسم أمين ، على نحو جيد ، أن بين مصر وبين أوروبا صراعا حضاريا ، ومن ثم وطنيا ، يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ ، وحدد ، على نحو ناضج وحاسم ، أن العقبة أمام تطور مصر ، وبلوغها المكان الطبيعى التى تأهلت له ، هى أوروبا !! .

« . . أن امام مصر عقبة رهيبة هى : أوروبا ! » . .

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد فى مصر منذ عهد سعيد — (١٨٥٤ — ١٨٦٣ م) حتى أصبح له فى عصر اسماعيل — (١٨٦٣ — ١٨٧٩ م) — سيطرة حقيقية علينا ، اذ باتت كل أفعالنا ولفقاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين ، وأضحى وزراءؤنا يميلون مرة الى اليمين ، ومرة الى اليسار ، خاضعين دائما لأوروبا . . أن أوروبا استخدمت دائما هذه السيطرة ضد مصر . . . ولقد آن الأوان لتسددك أوروبا ان المصريين قد عانوا وما يزالون يعانون بسببها ، وان العدالة تفرض عليها

(١٠٨) انظر الفصل الذى كتبناه فى التقديم « للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » تحت عنوان : « الإصلاح . . فالثورة . . فالاصلاح » . ج ١ ص ٣٣ — ١٠٠ طبعة بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سنة ١٩٧٢ م .

واجب اصلاح ما افسدته .. وفي انتظار الوقت الذى
تعترف فيه بخطأ سياستها الماضية .. اسجل : ان اوروبا
كانت العقبة الوحيدة الكبرى التى كنا نحاربها من اجل
استعادة مكاننا فى العالم ! .. » (١٠٩) .

هذا عن اوروبا ، بشكل اجمالى وعام ، أما انجلترا
التي أصبحت المحتل الذى انفرد باستعمار مصر ، فان
قاسم أمين يقف منها موقف « الناصح » لها بأن تأخذ
بيد مصر ، وفاء « بالواجب » عليها ، ويعلق عليها « الآمال »
فى أن تساعد فى تطور مصر الى الامام ، ويثنى على
ما تحقّق فى ظل احتلالها من « تقدم » فى عدد من الميادين
.. ولكنه يستنفر قومه الى النهوض ، محذرا اياهم من
ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاستغلال والاستنزاف
والنهب الاستعماري ، فهو « يأمل » فى الانجليز ، ولكنه
يطلب « المشاركة » ، ويحدد ان قانون « البقاء للأقوى
والأصلح » هو الحكم فى هذا الصراع بين المصريين وبين
الاستعمار !! .

فهو يطلب « أن تحمل انجلترا مسئولية مستقبل مصر ،
ما دامت تمسك مصيرها بين يديها » ويأمل ان لا يسمح
« اخلاص انجلترا » بعودة « الفساد الدكتاتوري » مرة
أخرى الى البلاد ، ويرى ان مصر « قد بدأت تنتظم
بالفعل فى طريق الحضارة » (١١٠) وانه قد أصبحت
لديها « حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية » (١١١)
وان مصر قد دخلت « عصر النظام والحرية » (١١٢) ..

(١٠٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .

(١١٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٣٤ ، ٢٤٤ .

(١١١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٤ .

(١١٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٥٥ .

ويحدد أن كل هذه الانجارات إنما هي من فعل الإنجليز ،
وأن الكثير منها قد تم في وجه معارضة التيار المحافظ
والجامد المناصر للقديم ، « فكل ما وجد في مصر من
الحرية والنظام والعدل ، لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل
الأجنبي ، وعلى رغم أهلها ! » (١١٣) .

ولكنه لا ينسى أن « يتحفظ » بعض المحافظ على
ذلك الاسراف الذي يتجلى في تقييمه لدور الاستعمار
في مصر ، وهو الاسراف الذي يجافي الحقيقة ، أو
يعرض جانباً واحداً من جوانبها ، فيتساءل قائلاً : لكن ،
« هل يعنى هذا أن لدينا حكومة كاملة ؟ وان كل شيء
على أحسن ما يرام ؟؟ » - (ونبه الى أن الإجابة بنعم
كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) - ثم يجيب :
« .. الحق ، أن لا .. فـمـا يزال أمامنا عمل كبير ،
وما يزال علينا أن نعيد تنظيم إدارة الأقاليم التي بقيت
مأوى لعقلية النظام القديم .. اننى أعلن حكومتى ،
أيضاً ، بالحاجة الى تمثيل وطنى حقيقى ، وان يكن فى
صورة مبسطة ! » (١١٤) .

وبالطبع فنحن نؤمن بأن هذا الموقف « الوطنى المعتدل »
لم يكن هو أصح المواقف ولا أجداها فى ذلك التاريخ ..
ولكننا لا نود أن نظلم قاسم أمين اذا تركنا القارىء
يتصور أن آماله فى التقدم بمصر قد كانت معقودة فقط
على اصلاحات الانجليز فى ادارتها ومرافقها ، فلقد كانت
آمال الرجل معلقة أيضاً ، بل وبالدرجة الاولى ، على
نهضة المصريين . لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب
وانتزاع مواقعهم فى بلادهم بجدارة ، والاستبسال فى

(١١٣) المصدر السابق : ج ١ ص ١٨٠ .

(١١٤) المصدر السابق : ج ١ ص ٢٧٥ .

تسبيل الفوز فى هذا الصراع ، الذى حذرهم مغبنة
الاخفاق فيه .. انه يحدد جابى الصورة كما رآها يومئذ ،
ايجابياتها التى دخلت الى الواقع المصرى ، والمخاطر
المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها .. فيقول :

« انى لا أجد فى ماضيها - « مصر » - عصرا انتشرت
فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنيه ،
وابتث الامن والنظام فى أنحاء البلاد ، وتهيأت الاسباب
للتقدم ، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن .

ولكنها ، من جهة أخرى ، لم يمر عليها زمن صارت
فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن ،
فان تمدن الأمم الفريية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء ،
حتى فاض من منبعه الى جميع أنحاء المسكونة .. وكلما
دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من زراعة
وصناعة وتجارة .. وأن أضر بجميع من حوله من سكان
البقاع الأصليين ، فانه انما يسعى الى السعادة .. يطلبها
أنى وجدها ، وبأى طريقة يرى النجاح فيها ،
وهو فى الغالب يستعمل قوه عقله ، فادا دعت الحال الى
العنف واستعمال القوة لجأ اليهما ... وهو لا يطلب
الفخار والمجد .. بل المنفعة .. وتحصيل الثروة من بلاد
تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع
بها .. فان صادفوا أمة متوحشة أبادوا أهلها
وأهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى أمريكا
وأستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى افريقيا ... وان
صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ،
ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشيء من
النظمات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم

وعاشروهم بالمعروف ، ولكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا ايديهم على اهم اسباب الثروة .. وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه « داروين » : قانون التزاحم في الحياة . فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها ، وهى ان تستعد الأمة لهذا القتال ! ، وتأخذ له اهبتها ، وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت .. « (١١٥) » .

فهو موقف « وطنى معتدل » ، اذا يبالغ فى تقييم انجازات الاستعمار الانجليزى فى مصر ، او على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسّمات ، لا كل القسّمات ... ولكنه يسنّز أمته « للقتال » دون ثرواتها وكنوزها التى هى الهدف الأول والأساسى فى هذا الصراع الضارى والتاريخى بينها وبين الأوروبيين . وهو لذلك ، أيضا ، يدعو الى جعل « الاحساس الوطنى » أحد أسس ثلاثة لا بد أن يقوم عليها نظام « التربية » عندنا .. ومعه : الأساس الدينى .. والوازع النفسى وتنمية الضمير .. « (١١٦) » .

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، فى « الموقف الوطنى » لقاسم أمين - تتعلق « بتطور » موقفه هذا فى سنوات حياته الأخيرة .. ذلك أنه - مع آخرين من أبناء تلك المدرسة المعتدلة - قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولأمالهم وأهدافهم

(١١٥) المصدر السابق . ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .
(١١٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢١٥ - ٢١٧ .

الاستفادة من أسلوبه العصري وبرامجه في الإصلاح . .
 كما شعروا بأن عددا من اصلاحاته التي كانوا قد
 استبشروا بها خيرا قد عادت وتعود نتائجها الايجابية
 للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية ،
 فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتلال ونمو ثروات
 التجار والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد اتهمت
 أغلب عوائد اصلاحات الري والزراعة والرواج التجاري
 في البلاد . . ولم يبق لأبناء الوطن الا الفتات . . . وخلق
 فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد أصبح هو
 العائد الأساسي والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم . . ولم
 تحدث اضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات ابنائها
 العقلية . . بل لقد عاد الامام محمد عبده ، في مرضه
 الأخير ، فائى على نظام التعليم الذى اقامه محمد على ،
 وفضله على اصلاحات الانجليز التعليمية ، بعد ان كان
 قد علق عليها الآمال (١١٧) .

وهذا التطور الذى نقول انه قد حدث فى « الموقف
 الوطنى » لقاسم أمين ، يتجلى لنا اذا نحن تذكرنا حديثه
 الذى سبق وأوردناه ، والذى انتقد فيه النمط الذى
 سلكه مصطفى كامل فى الدعوة الى الوطنية ، ثم قارناه
 بالعبارات الرائعة والعميقة التى سطرها فى مذكراته
 عندما شيعت مصر جثمان الزعيم العظيم مصطفى كامل
 فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م . . وهى العبارات التى
 يقول فيها قاسم أمين :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م . . يوم الاحتفال بجنازة
 مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب

(١١٧) « الأعمال الكاملة للامام محمد عبده » . دراسة وتحقيق
 دكتور محمد عمارة ، ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ . وج ٣ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

مصر يخفق .. المرة الاولى كانت يوم تنفيذ حكم
« دشواي » .. لقد اتحد يومها شعور الناس .. ولكنه
بقى مكتوما في النفوس .. اما يوم الاحتيال بجنازه
صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك التسور ساطعا في فوه
جماله ، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ،
ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولد الحديث ، الذي
خرج من احشاء الأمة ، من دمها واعصابها ، هو الأمل
الذي يتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي
يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو
المستقبل ! « (١١٨) » .

فنحن هنا نشعر ان قاسم أمين يبايع مصطفى كامل
ومذهبه في الوطنية ومسلكه في البعث الوطني ، وهو هنا
يحیی هذا « الانفجار » الوطني الهائل الذي جاء يبعث
الدفع والحرارة في « القلوب الجامدة الباردة » التي
نأت عن مواقع الوطنية الثائرة ولهيب حرارة الحركة
الوطنية الجديدة .

وكما كانت خيبة الآمال في اصلاحات المستعمر سببا في
ذلك التطور .. فلقد كان من أسبابه — كما نعتقد : تعاظم
التيار الوطني الذي قاده مصطفى كامل والحزب الوطني
.. وأيضا اخلاص هذا النفر من أبناء مدرسة الاعتدال
الوطني لقضية بلادهم ... ذلك الاخلاص الذي دفعهم
لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما لم يحقق لهم
« الاعتدال » ما أملوه لخمس الوطن وتحريره من
الاستعمار .

(١١٨) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » ج ١ ص ١٨٣ .

أعماله الفكرية

(الأعمال الكاملة لقاسم أمين) التي جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتي قدمناها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦ م ، هي حلقة في تلك السلسلة التي بدأنا إخراجها منذ سنة ١٩٦٨ م . سلسلة « الأعمال الكاملة » لاعلام عصر اليقظة العربية والبعث الحضاري الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الاسلامي المستنير .

وفي هذه السلسلة ، صدرت :

١ - « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني » .. ونحن نعيد طبعها الآن ، مرة أخرى ، كي تتضمن تلك النصوص التي اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفي مقدمتها تلك النصوص التي كانت منسوبة ، خطأ ، للإمام محمد عبده .. وهي نصوص ستجعل طبعها الجديدة تأتي في أربع مجلدات ، بعد ان كانت طبعها الأولى في مجلد واحد .

٢ - « الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي » .. ولقد صدرت طبعتها الثانية ، حاوية نصوصا ووثائق لم تنشر للكواكبي من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والإضافات التي أدخلها على كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » قبل وفاته .

- ٣ - « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » .. ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير .. ونفدت طبعتها الأولى .. ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتنقيحات .
- ٤ - « الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » .. وصدورها يقترب الآن من الاكتمال .
- ٥ - « الأعمال الكاملة لعلي مبارك » .. ونقد صدر مجلدها الأول ..

فاعمال قاسم أمين ، اذا ، هى حلقة فى هذه السلسلة ، التى نرجو لها النمو كى تضع بين يدى مفكرينا وباحثينا وقرائنا اشمرات العقلية الفلده والبارزة التى صنعت عصر نهضتنا الحديث ، والتى لا تزال فاعله ، ومؤثرة فى حركتنا الفكرية حتى الآن .. وهو انجاز نعلق على استمراره واكتماله أهمية كبرى ، لشدة حاجة حركتنا الفكرية اليه ، وحتى لا نكون بدعا بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث ، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار ، وتحقيقها والتقديم لها ، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية ، رغم غناها الفكرى وشدة حاجتنا الى وصل خيوط تطورنا الثقافى وتأصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه .



واذا كان لابد هنا من كلمات عن النصوص التى تكون « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » فاننا نقول : ان مفردات نصوص هذه الأعمال هى :

- ١ - « كلمات » .. وهى الخواطر واللمحات التى كتبها قاسم أمين فى « مفكرته الخاصة » ، والتى كانت بمثابة « مذكرات نفسية خاصة » .. كتبها لنفسه ، وأودعها

خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره ، صاغها في أسلوب جاء غاية في الرشاقة والجمال .

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه ال « الكلمات » لصديقه أحمد لطفى السيد باشا (١٨٧٢ - ١٩٦٣ م) فلما توفي قاسم سعى لطفى السيد الى الأسرة ، بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧ م) حتى حصل عليها، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف بركات (١٨٦١ - ١٩٢٤ م) ثم نشرتها جريدة لطفى السيد - « الجريدة » - سنة ١٩٠٨ م .

٢ - « أسباب ونتائج » .. وهى خمسة عشرة مقالة نشرها قاسم أمين ، دون توقيع ، فى صحيفة الشيخ على يوسف « المؤيد » ما بين سنة ١٨٩٥ م وسنة ١٨٩٨ م .. مقدمة وأربع عشرة مقالة ، عالج فيها عددا من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى تهم دعاة الإصلاح .

٣ - « أخلاق ومواعظ » .. وهى مثل « أسباب ونتائج » ، مقالات خمسة كتبها فى « المؤيد » فى نفس الفترة الزمنية - ١٨٩٥ - ١٨٩٨ م - دون توقيع ، وقصرها على علاج مشاكل « الموظف والوظيفة والتوظيف » فى عصر كان التسابق فيه على العمل « الميرى » ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج ، وتنمى فى هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق .

٤ - « المصريون .. رد على دوق دراكور » .. وهو

الكتاب الذى أصدره بالفرنسية قاسم أمين سنة ١٨٩٤ م ردا على الكاتب الفرنسى « دوق داركور » الذى أصدر كتابا عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣ م امتلا بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الاسلام والمسلمين .

ولقد قال قاسم أمين عن ملايسات كتابته لهذا الرد : « اننى حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة ايام ، وقد قلت ذلك لجميع اصدقائى ، قبل ان يرد على خاطرى فكرة الرد عليه . لقد وجدته بالغ القسوة ، وأحزننى انه حاول انتزاع جميع آمالى ، غير اننى أخذت استرد هدوئى شيئا فشيئا ، وبعدها شرعت أطيل التفكير فى كل ما كتبه عنا ، وتأملت جميع المشاكل التى وضعها وحلها ، وخلعت عنى صفتى المزدوجة ، كمصرى مسلم ، لأحل الموقف فى حياد تام ودون انفعال أو تحيز ، ولم أسترشد بغير الرغبة فى معرفة الحقيقة ، حتى أستطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله اجنبى يعرف عن مصر كل ما أعرف ، وقيّمها بطريقة محايدة » .

ولقد ظل هذا الكتاب الذى يمثل قسمة متميزة فى فكر قاسم أمين ومرحلة فى تطوره الفكرى حيال بعض القضايا الهامة ، ظل بعيدا عن اللغة العربية ، حبيس أصله الفرنسى ، حتى تقديمنا له فى أعماله الكاملة .

ولقد كان ذلك سببا من أسباب مجيء أغلب الدراسات التى كتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة ، وبعيدة عن ادراك تطوره الفكرى . . وهما الأمران اللذان تحققهما ، ضمن ما تحقق ، الدراسة التى قدمناها عنه هنا .

اما انجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ

محمد البخارى .. ولنا فيه التحقيقات والتعليقات
والترجمة الموجزة لما ذكر فيه، نصه من أسماء الاعلام .

٥ - « تحرير المرأة » .. وهو أكثر كتب قاسم أمين
شهرة وذيوعا .. بل أشهر كتاب عربى صدر فى عصره ..
صدر سنة ١٨٩٩ م فأثار أول معركة فكرية كبرى سببها
كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا فى بداية القرن الماضى .
ولقد سبق لنا أن عرضنا ، ونحن نقدم للأعمال الكاملة
للإمام محمد عبده ، الى أن للأستاذ الإمام دورا فى تأليف
هذا الكتاب ، وقدمنا فى ذلك المقام أدلتنا على أن رأى
الشرع الإسلامى فى قضايا : الحجاب ، والزواج ،
والطلاق ، وتعدد الزوجات ، الذى تضمنه « تحرير
المرأة » هو للأستاذ الإمام .

٦ - « المرأة الجديدة » .. وهو الكتاب الذى أصدره
قاسم أمين سنة ١٩٠٠ م ، وركز فيه جهده للرد على
الاعتراضات التى قدمت ، فى الكتب والرسائل
والصحف والمجلات والمنتديات ، ضد كتابه « تحرير
المرأة » .. كما ضمنه تطورا أكثر جرأة فى عدد من
القضايا التى تناولها فى « تحرير المرأة » فى تواضع
أو على استحياء .

٧ - « انشاء الجامعة » .. وهى كلمة لقاسم أمين
خطبها فى اجتماع من الاجتماعات التى عقدت سنة
١٩٠٨ م للتحضير لإنشاء الجامعة المصرية .. عرض فيها
لأهمية التعليم الجامعى ودوره فى خلق العلماء والمفكرين
والمختصين .

٨ - « الامام محمد عبده » .. « اخلاقه وفضائله وامامته » .. وهو خطاب قاسم أمين الذي القاد في ٢٠ اغسطس سنة ١٩٠٥ م باجتماع تأبين الأستاذ الامام، في ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته ، وفيه عرض لمكانة الامام ، ودوره في الفكر العربي الاسلامي ، والمدرسة الفكرية التي تكونت من حوله .

تلك هي مفردات « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » .. وهي الأعمال التي جمعناها ، وحققناها ، وقدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته ، وفكره ، ومكانه من حركتنا الفكرية في عصر نهضتنا الحديث .. ولقد صدرت طبعتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت سنة ١٩٧٦ م .. وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق .

كلمات

دونها قاسم أمين في مفكرته الخاصة ...
فجاءت : اية من آيات الخواطر الصادقة مع
النفس ..
ونموذجاً راقياً للمذكرات التي يوحىها القلب
وتسكبها العاطفة ..
وصورة من صور الشاعرية التي سطرها قلمه
الرشيق (..)

● الحرية : (١١٩) .
الحرية الحقيقية تحتل ابداء كل رأى ، ونشر كل
مذهب ، وترويج كل فكر .

● لا يفرنك المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعراً .
● ان الذى مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب
غيرك .

(١١٩) العناوين الفرعية التي وضعت لفقرات هذه « الكلمات » من
انشائنا نحن وليست من وضع قاسم أمين .

● رب كلمة بتجرعها حلیم مخافة ما هو شر منها .



● اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة ، لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك .



● فى مصر : كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلا ، فاذا درس شيئا من العلم صار عالما مفضالا ، فاذا امتاز ببعض الحلق او اظهره عد من التوابغ .

● الايمان :

ليس الايمان مسألة عقلية او علمية ، فانا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجا اليه الى حد انه يستحيل عليه ان يعيش بدونه .



● بين العلم والدين :

تعصب اهل الدين ، وغرور اهل العلم ، هما منشا الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقى ، لا فى الحال ولا فى المستقبل ، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره . بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر ، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم ، اى بمعرفة الحوادث الثابتة ، ولا يمنعه ذلك من التفكير فى

المجهول انذى يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين .

● العشق :

لا شىء يشبه العشق فى عنفوان نشأته ، اذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق امامه فوصل الى القلب بوثة واحدة او بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملاه برمته ، فلا يقبل منافسا او منازعا او شريكا او ضيفا بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيلها عن شواغلها وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ، ويذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن الا اذا قطعت العلاقات مع غيره ، وأصبحت كلها له كأنها ولدت معه فى يوم واحد وتفننى معه فى ساعة واحدة ، لاتعرف ماضيها ولا تبالى بمستقبلها ، فاذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برفقها ، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحا وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه ، سماءه صافية مهما تراكمت عليها السحب ، ومائدته فاخرة وان لم يكن عليها غير الخبز والملح ، تنتابه الحوادث ولا تترك به أثرا ، لأنه لا يعابها ، سارة او ضارة ، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لأنه يشعر بأن فى جسمه روحين وفى صدره قلبين .

ان كان فى الوجود انسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق .

كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما ، وان كان بين وضيعين اكسبهما شرفا وقتيا ، حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى اصلهما .

ليس ما يكتب على ابواب الامكنة دائما صحيحا . فقد يكون بين سكان بیمارستان من هو اعقل من هذا الذى تراه سائرا فى الطريق متمتعا بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل ابوابها على نساء فيهن من هي اوفر حشمة وادبا واكثر بعدا عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتي تنحنى الرؤوس امامهن .

يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوبا ، واذا كان غير محبوب فيجسد فى اله لذة اخرى مشابهة للسكر ، من تنبه فى الأعصاب وسرعة فى دورة الدم وانفعالات شديدة فى النفس ، وبالأجمال من زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة ، كلاعب القمار يتمتع بارضاء شهوته فى الريح او فى الخسارة .

● من اختبرى الارباب الأفكار الدين اختلطت بهم يظهر لى ان الحمية عندهم سطحية لا تذكىها نار لتوقد فى القلب - حمية الفساذ متى انتشرت عادت هباء لا تترك اثرا بعدها .

● الكاتب :

فى الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بأبداء فكره .

ولكن الكاتب المحب لفنّه ينشر أفكاره كما هي ،
ينشر الحقيقة منزّهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن
يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأي
أمر كان . هو العاشق الذي يعتقد الكمال فيما يحبه
ولا يتصور وجود شيء يعادله ، ولا يبالي بدم الناس ،
بل يجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منها لأعضائه
منشطاً لقواه مفرياً له على الاستمرار والثبات .

● كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي صورة
امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل .

● بعد سن الأربعين يتبدى العاقل يرى أن المطلق
ليس له وجود ذاتي ، وأن الثروات الجميلة التي نجبها
ونقدمها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد في
الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها .

● الخطيئة :

لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو
عن الخطيئة - العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل
خطيئة .

هل المخطيء مسئول أو غير مسئول ؟ وما هي درجة
مسئوليته ؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على
غيره أن يحلها ، لكن حلها يكاد يكون محالاً ، إذ
لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب
منها الذات الانسانية بوجهيها : الأدبي ، والمادي ،

والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الإرادة على
النفس محدودة وخاضعة لآثرات كثيرة شديدة
تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة
ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا ، وكل تاريخ الإنسان
فى الماضى يدل على أنه لم يكن متولدا عن الحيوان
المفترس مباشرة فهو مشابها له فى شره وأطماعه
وشهواته ، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم ،
خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صفة
سعيدة وعارضا موقتا .

فالخطيئة هى الشئ المعتاد الذى لا محل للاستغراب
منه ، هى الحال الطبيعية الملازمة لفريضة الإنسان ، هى
الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم
أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التى يتخيل
لها أنها كانت الذ من كل ما أبيع لهما . من ذلك اليوم
البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت منهما إلى
ذريتهما جيلا بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذى
تئن تحته أرواحنا الملهبة شوقا إلى الفضيلة العاجزة
عن الحصول على اليسير منها إلا بمقاساة أصعب
المجهودات ، حتى هذا النزر القليل لا سبيل إلى بلوغه
إلا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر فى الخطيئة
يكون منه الدرس المفيد لاتقائه فى المستقبل .
وأخيرا فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما
تنفع لإصلاح المذنب ، فقلما توجد طبيعة مهما كانت
يابسة لا يمكن أن تلين إذا هى عولجت .

● أمر لا تدرى متى يفشاك لا يمنعك مانع من أن
تستعد له قبل أن يفجأك .

● لا تصحبوا الأشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم .

● فى اللغة :

لا أدرى ما هى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل . ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الأجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية ، وان كان مقصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم امرا مستحيلا . ان لم يوجد ومن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها .

يظهر ان باب الاجتهاد أغلق فى اللغة كما أقفل فى التشريع ، فقد صار من المقرر بيننا ان اللغة العربية وسعت وتسع كل شئ ! .

لكى يكون هذا الاعتقاد صحيحا يجب ان نفرض ان هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها فى العالم ، وهذا يناقضه قيام الدليل على ان جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقى العام ، وتابعة فى أطوارها لسير الانسانية ، فهى اذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التى لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت فى الماضى . ولا أدرى لماذا يريد قومنا ان يستعبدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحيانا فى لغة العامة بحجة انها لم ترد على لسان العرب .

نحن خلفاء العرب فى لغتهم ، فكل ما تخترعه ملكاتنا
فى اللغة يعد عربيا بالطبع .

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا الذى يقرأ كل
ما يقع تحت نظره من غير لحن . اليس هذا برهانا كافيا
على وجوب اصلاح اللغة العربية .

نى رأى فى الاعراب اذكره هنا بوجه الاجمال ، وهو
أن تبقى اواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من
العوامل ، بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات
الافرنجية واللغة التركية ايضا ، يمكن حذف قواعد
النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن
يترتب عليه اخلال باللغة ، اذ تبقى مفرداتها كما هى .
فى اللغات الأخرى يقرأ الانسان ليفهم ، أما فى
اللغة العربية فانه يفهم ليقرا فاذا اراد أن يقرأ الكلمة
المركبة من هذه الأحرف الثلاثة « ع ل م » يمكنه أن يقرأها
علم (١٢٠) أو علم (١٢١) أو علم (١٢٢) أو علم (١٢٣)
أو علم (١٢٤) أو علم (١٢٥) . ولا يستطيع أن يختار
واحد من هذه الطرق الا بعد أن يفهم معنى الجملة فهى
التي تعين على النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة
عندنا من أصعب الفنون .

-
- (١٢٠) يفتح العين وكسر اللام
 - (١٢١) يضم العين وكسر اللام
 - (١٢٢) تكسر العين اللام ومكون اللام
 - (١٢٢) بكسر العين ومكون اللام
 - (١٢٤) يفتح العين واللام المشددة
 - (١٢٥) يضم العين وكسر اللام المشددة

كان المؤلفون في القرون الوسطى هم ابن سينا (١٢٦) وابن رشد (١٢٧) وابن مسكويه (١٢٨) واضرابهم . كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة ، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم ، ثم مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام ، واللغات الأوروبية أخذت تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها في الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة - صارت أنفس جوهرة في تاج التمدن الحديث ..
رغما عن هذا قد أجمع قومنا على ان لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول ، ويزعمون انها سيدة اللغات ، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا .

● الابتسكار :

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم في ما يكتبون ، وانما في عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة والسمع ، ومستودعات لأفكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التي ليست لهم ، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم . كل عملهم محصور

(١٢٦) أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا « ٩٨٠ - ١٠٣٦ م »
فيلسوف وطبيب شهير في التراث الاسلامي ، لقب بالشيخ الرئيس .
وهو صاحب نزعة اشراقية في الفلسفة .

(١٢٧) أبو الوليد بن أحمد بن رشد « ١١٢٦ - ١١٩٨ م » فيلسوف قرطبة ، الشارح الأكبر لأفكار أرسطو ، وأبرز فلاسفة التيار المشائى المسلمين .

(١٢٨) أبو علي الخازن « المتوفى سنة ١٠٣٠ م » فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء . وله في الاخلاق كتاب « تهذيب الاخلاق » وفي التاريخ « تجارب الامم » وغيرهما كثير .

بـ تكرار الفكر الغير الشى حفظوها كما يحفظ الأطفال
قرآن ، فاذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صلقوا
مدحوا وصاحوا ! فلان ما انخلاء ! علان ليس فى العالم
ثله ! .

● طلب الحقيقة لذاتها :

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق
وظيفة ، أى لكسب المال ، أما حب الحقيقة والاستغراق
فى تحصيلها والشوق الى اكتشاف المجهول ومغالبة
لصعوبة والاهتمام بترقية النفس ، وبالأجمال التعليم للتعلم
فلا فائدة فيه ، والفائدة كل الفائدة فى هذا الذى لا فائدة
فيه .

● صحافتنا :

إذا قرأت الجرائد تجدها جميعا متحدة فى موضوعها
متشابهة فى تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين
احداها والآخرى ، وإذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا
من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته
من الاول ، ولا تجد فى الجريدة التى تقرأها أو تسمع
من صاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو
أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك
بعجائب جنونه .

● يوجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة ، أحسنها
طريقة واحدة : هى التى يجدها الكاتب المجيد .

● خُدود الإنسان :

عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود ، وعلمه القليل لا يصل الى ادراك المجهول الذى لا نهاية له ، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا ، لا فرق فى ذلك بين الفبى الجاهل والذكى العالم .



المقلد فى ايمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة فى عروة الملابس ، والمنكر مجسازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول : ان كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيرى وان كان موجودا ربحت مع الرابحين ، لذلك أومن به ! هذا هو المحتال الذى لا يسان أحد - حتى الاله - من نصبه .

● الأخلاق :

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان فى جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنا من السقوط يوما فى الرذيلة ، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة الا وفيه استعداد لان يأتى يوما بأفضل الأعمال .

وحقيقة الأمر ان أخلاق الإنسان ليست شيئا يتم دفعة واحدة ، وليس لها حد تقف عنده . انما هى فى تحليل وتركيب ، فى تكون مستمر ، يعثرها الانحلال زمنا وتعود بعده الى التماسك .

الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً ، وإنما تختلف
شهواته باختلاف سنه ، فشهوة اللعب عند الطفل ،
وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عند رجل
الأربعين ، وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها
شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا ، متى
وقع فيها أحداً يجب عليه ألا يترك نفسه إلى تصرفها ،
ولا يستصعب الخلاص منها ، ولا ييأس من نفسه بل عليه
أن يقاومها كما يقاوم المريض علته ، عليه أن يوجه إرادته
إلى مصارعتها والتغلب عليها ، عليه أن يحول فكره عن
الأمس الذي كان فيه قبيحاً وينظر إلى غده الذي يكون
فيه جميلاً .

لا يطلب السكّال من المرء وإنما يطلب منه أن يكون
في كل يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى .

في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل
الذي حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقا تل يوماً
مهاجماً ويوماً مدافعاً ، كذلك الحال في جهاد النفس
لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذي عرض نفسه
إلى استهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فإذا اختبرها
بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على
نفسه التي هي الفضيلة الحقيقية ، خلافاً للرجل الذي
احتجب عن جواذب الشهوات فانه متى وجد أمام فرص
مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلاً ، وإذا سلم في
نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها .

● بعد سن الأربعين كل زلة خطيرة .

● **هين الطماع خيلها ليهي شيتا شيتيه ، لها نظرة**
تحيط به وتحويه برمتة وتحوزه وتغل في نفسك ما يفعله
الاختطاف الحقيقي . هذه النظرة رأيتها كثيرا عند المعتاد
لعب القمار .

● **يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص**
في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من
الاتقان المعهود .

● **لا تكمل اخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس**
وذمهم اياه .

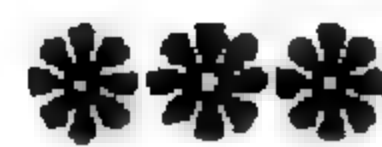
● اصحاب النفوس الكبار :

زارني أشهر اديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية ،
وكان في يدي كتاب فرنسوى يشتمل على حكم ومواعظ
موضوعة في جمل مستقلة لا ارتباط بينها ، فقرأ فيه
عبارة هذه ترجمتها : « انى أخشى ما أتمنى » . فقال :
كيف يخشى الانسان الشيء الذى يتمناه ، فأجبت : كل
انسان يخشى ما يكره ، وليس كل انسان يخشى ما يتمنى ،
وانما هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة ، وتكون
سببا لشسقاتهم ، يرى الواحد منهم وردة جميلة في
البستان فيتمنى أن يقطفها ، ولكن يبعده عنها ما حولها من
الشوك ، يشتهى تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع
ورائحتها الزكية ، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التى ربما
تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها فيلقىها على الأرض
وهو يشتهىها ، يلقى المرأة التى كان يراها فى مخيلته
مثال الجمال ، فيود أن يلقى نفسه تحت أقدامها ويعطيها

قلبه وحياته ، ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها ،
يتمنى صديقا ويخشى أن يجده خائنا . يتمنى ... كل
شيء ، ويخشى أن لا يجد فيه كل ما تخيله . وهكذا يقضى
حياته بين الأمل والخوف من تحقيقه ، وتنتهى به الحال
الى أن يرى أن السلامة فى ترك الأمانى .



● كل مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منها اظهار
الحقيقة ، ولكنك لا تجد الا شخصا يريد أن يعلمك
ما ليس له به من علم ولا يصفى الى شيء مما تقوله لانه
ليس مشتغلا الا بما يقوله .



● الوحدة :

وجدت السامة غالبا فى الاجتماعات ، وما شعرت
بها فى الوحدة . اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم
رأيت وسمعت ما يزهدنى فيهم فأفر منهم وأرجع ملتجئا
الى نفسى فأجد فيها الراحة والسكون .

● الصديق والعدو :

من الذى يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر ؟ أهو
الذى يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هى ؟
أم الذى يفض البصر من نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه
ليسره ؟ لا شك أن الأول هو الصديق المكروه والثانى هو
العدو المحبوب .

● الرياء :

من الناس من اذا اراد أن يفعل الخير انتهر الوقت المناسب لإعلانه ، فاذا رأى شهودا وضع يده في جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء في يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شك في مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهاً العشرة ، فاذا خرج هذا المسكين التفت الى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما اجتمع في نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصفي الى شكواه ويشاركة في ألمه ويحزن لحزنه ثم يبدل له من عبارات التسلية وكلمات النصيح ما يقوى عزيمته ، فاذا قدم اليه مساعدة مادية دسها في وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح احساسا شريفا . يحتال في انتخاB طرق العرض ويعتذر عن عمله ، فاذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع في ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذي يعرف أن للنفس حياة يجب احترامه كما أن في الجسم ما ينبغي غض النظر عنه .

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره .

● التجارب :

أقل مراتب العلم ما تعلمه الإنسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما تعلمه بتجارب الشخصية في الأشياء والناس .

● في الأمة الضعيفة المستعبدة حرف النفي (لا)
قليل الاستعمال .

● العقوبة في التربية :

من مروي في المدارس والمكاتب أحفظ تذكارا ثابتا
لا يزول أبدا - وهو الخوف من الضرب - في الكتاب
ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أي
مكان آخر من الجسم ، وفي المدارس بالنيلة المزفتة
والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام - كنت أذهب الى محل
التعليم مصحوبا باضطراب في العقل وخفقان في القلب
وارتعاش في الجسم ، وبمعكس ذلك أرى الآن الأطفال
يذهبون الى المدارس راضين مسرورين - نتيجة منع
الضرب فيها ودخول الألعاب الرياضية .

● الحرية :

الحرية الحقيقية تحتل ابداء كل رأى ونشر كل مذهب
وترويج كل فكر .

في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ،
ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم
وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية
والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكر
أحد ، ولو كان من الد خصومه في الرأي ، أن ينقص
شيئا من احترامه لشخصه متى كان قوله صادرا عن نية
حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل
أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ .

● العبقرية :

يظهر لى ان الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبى ، فأكثر الناس استعدادا للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة ، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون ، أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم ، يتنافسون فيما بينهم فى مصادمة كل صعوبة ، من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو وليا طاهرا أو فيلسوفا حكيما أو نبيا كريما .

● الفنون الجميلة :

لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى ، هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فاهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور .

دخلنا قصر اللوفر ، وكنا أربعة من المصريين ، لنمتع النظر بأبداع ما جادت به قرائح أعظم الرجال فى العالم ، فبعد ان تجولنا فى غرفتين جلس أحدهنا على أحد الكراسى قائلا : انا اكتفيت بما رأيت ، وها أنا منتظركم هنا. وقال الثانى : اتبعكما الانى أحب المشى ، واعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا إلى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة

المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح : (هذا اللف ما فى هذه الدار) ! وصلنا الى تمثال الهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع ، فسألت دليلنا : ماذا تساوى هذه الصورة اذا عرضت للبيع ؟ فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنها اذا لا حد لقيمتها .

● الأتراك :

مهما كان الراى فى حكم الأتراك لمصر فلا ريب عندى ان الأمة المصرية استفادت منهم كثيرا ، وجدت فيهم انسانية راقية فاقبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن فى اللبس والمآكل وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الأدبية .

واذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة فهى لا تزال الى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى أنك لترى الرجال المهديين يتهافون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابتعادهم عن الثانية — واليوم وجد المصريون والأتراك امامهم انسانية أرقى ، اختلطت بهم اختلاطا كبيرا ، فأخذوا يقلدون الأوروبيين فى جميع شئون حياتهم ، ولا أرى ان هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى انقاذ امتنا من الحال التى هى فيه الآن .

● الراى العام :

اذا رأيت الراى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة ، ساخطا عليه ، شديد الرغبة فى سقوطه ، فاعلم انه غالبا رجل طاهر وعامل نافع .

وإذا رأيت الراى العام معاديا لكاتب ، وأعد له خصوما يتسابقون الى نقض افكاره وهدم مذهبه ، وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم الى السب والقذف ، فتحقق انه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق .

ما هو الراى العام ؟ .

أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله ، عدو التغيير ، خادم الباطل ، ومعين الظالم ؟ .

لو انتظر المصلحون دائما رضاء الراى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء .

● اللذة : ومضة لا تتكرر :

صنف الطعام الذى أعجبتك ، أو قطعة الغناء التى أطربتك ، أو ليلة الأنس التى رافقتك مع محبوبتك ، أو غروب الشمس البديع الذى خفق لأجله قلبك ، اذا قصدت تكراره فانك لا تستطيع أن تجد السرور الذى شعرت به لأول مرة ، فلا تحاول أن تنال ذلك فى اعادته .

● الجبان المدعى :

قبيل الغروب وقف بنا « وابور النيل » الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع ، وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا ففر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان) .

أما الآخر فتقدم اليه حاملا فأسسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه ، ثم تركه فى مكانه ، وأخذ

سلاحه وعاد الى عمله ، ولم يتكلم في اثناء ذلك بكلمة ،
وحيثما تحرك زميله ومشى محترسا على اطراف قدميه
شاخصا الى الحيوان ، واقترب منه بطيئا بطيئا ، ولما
وصل اليه لمسه بطرف القاس التي كانت في يده وقلبه
مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق انه مات صاح (يا ابن
الكلب !) وطعنه بالقاس طعنة قوية .

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به
الى الجسر ، وكان في هذه الساعة عامرا بالمارة ،
فاستوقف الأطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة
عليهم قائلا : (هجم علينا فقتلناه) وفي آخر الرواية
يلقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء
ويهرب الأطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا
الجبن ، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا
جميعا ، وهو في مقدمتهم حاملا فريسته . اليس هو
الحال دائما في جميع مظاهر الحياة الدنيا : ترفع من
رجال العمل عن حب الظهور ، وجراة من رجال القول على
اغتناب أعمال غيرهم والتبجح بها !

● سحر المطبعة :

يفعل الكلام المطبوع في نفس الجاهل فعل السحر
فيستولى على عقله ، فاذا روى عن كتاب قال لنفى كل
شبهة : هذا مدون في الكتب ، واذا نقل عن جريدة
قال : هذا مذكور في الجرنال .

فاذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وان
الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنال ، أجابك :

نعم : ولكن لابد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لأن صناعته تقضى عليه بذلك .

● توجد كلمات الصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة ، فحيث تكون احداها تكون الاخرى ، حتى ملت طول العشرة ، كالعالم العلامة ، والحسيب النسيب ، والصدىق الحميم ، والسيدة المصونة . فاما طلاق يرد اليها حرية الاقتران بكلمات اخرى ، واما على الأقل حبلولة مؤقتة تستريح فى اثنائها من هذه الشركة القهرية .

● الدوق :

من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الدوق السليم .

الدوق السليم هو هذا الاحساس الفطرى الذى ينمو ويتهدب بالتربية ، هو الشماع اللطيف الذى يهذى صاحبه الى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب ما لا يناسبه .

وعكسه هو الدوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا ، هم على يقين من ان الدوق لم يخرج من مصر . يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية ، والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجانا على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين .

٥ صداقة :

كان خمسة من أرباب المعاشات ، خمسة شيوخ ، مروا على فروع الإدارة المصرية القديمة وتقلبوا في مناصبها العالية من مديرية الى مجلس الأحكام الى ديوان الأوقاف الى السكك الحديدية ، اختاروا بيت أحدهم ، أكبرهم رتبة ، وصاروا يجتمعون فيه من الصبح الى الظهر ومن العصر الى بعد الغروب ، جالسين على الكراسي في بستان عتيق مهمل ، ولكنه واسع الأرجاء ، تطاول أشجاره السماء ، هواؤه معطر بروائح الزهور ، لا يصل اليه شيء من ضوضاء الطريق ، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور ، ماذا كانوا يقولون ويفعلون ؟ كانوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤتسسين بهذا الاجتماع ، مكتفين به لسد فراغ حياتهم ، وفي بعض الأحيان يلعبون النرد ، فيتقدم منهم اثنان الى ميدان المباراة ، ويلتف حولهما الباقيون للفرجة ، واذ ذاك ترتفع أصواتهم - شيش يك - بنج جهار - خانه - اضرب - ويتناقشون بحدة ، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يفضب لأنه مغلوب ، فاذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحاثون ويذكرون ماضي حياتهم وسيرتهم في أعمسهم بالتفصيل والتدقيق في تواريخ السنين والشهور ، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمانة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين ، يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة ، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الإدارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم ، وذلك بعبارات والفاظ هادئة مجسدة عن حدة الشهوات

والتأثر ، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحيانا على وجوههم . وهناك موضوع كان يتردد فى غالب الاحيان فى حديثهم ، هو تقدير سن كل واحد منهم ، متى طرقيه جرحهم الى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخط فى الأرقام والوقائع وعوج فى الراى وابعاء للحق ومفالطات ظاهرة ، كانوا هم أنفسهم اول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع دويه من مسافة بعيدة ، ومهما بلغ جهدهم فى الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة ، وظل كل منهم حافظا مركزه متمسكا بزعمه . وفى يوم حضروا كسادتهم الى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى الى بيت أحدهم ، واستمروا هم الأربعة على حائهم المعهودة ، ولكن نفوسهم كانت تشعر دائما ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو اليهم انفرادها وتدموهم الى الانضمام اليها ، فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر ، وماتوا واحدا بعد الآخر فى مدة قصيرة ، وبقي خامسهم الى الآن منفردا كئيبا لا يتكلم ولا يخرج من بيته ، لا يدري ماذا يصنع بحياته ، ويرقب الموت الذى يخلصه منها .

● ليس تقى :

أعرف حسين بك ؟

— لا — ؟

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط غير مبتسم . اذا قال لك : نهارك سعيد ، ضحك ، واذا أخبرته ان الهواء طيب ضحك ، واذا سمع

ان زيدا مات ضحك ، زينة المجالس ، واتيس النوادي ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ومنوطا بنشر التفریح حوله ، يستخدم كل شيء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد في أهم الحوادث موضوعا للتكيت ، وفي أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك في أشرف الأعمال لابد أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس .

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاص الهزلي الصحيح فرق عظيم ، الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر الى موضع العيوب في الانسان وجهات الضعف في الحوادث فيبتسم بسكون ولطف ، واذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غايته بل بعده وسيلة للفت النظر الى شيء يحزنه وأمر يبكيه .

غرضه الاصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التي يراها مناسبة لاستعداده الطبيعي . لا يحقر احساسا شريفا ولا يصغر عملا كبيرا وانما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بهمسما اخف ما يمكن من الضرر ، في هذا الأسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين في أوروبا ، وعدوا من اعظم رجال الأدب والفلسفة .

● تحايل :

أخبرني موظف في الأزهر ، لا يخفى عليه شيء من أسرار الطلبة ، انه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن

يتميز وراء شهوته ذهب إلى أحد البيوت العمومية وعقد
على امرأة بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش
أو ما يقرب من ذلك ، فإذا قضى شهوته طلقها وخرج
معتقدا أنه برىء من كل ذنب .

● سئل ح . بك - ما رأيك في كتاب « تحسرين
المرأة » ؟

فأجاب : رديء ! . . هل قرأته ؟ - لا - أما يجب
أن تطلع عليه قبل الحكم بردائه ؟ - ما قرأت ولا أقرا
كتابا يخالف رأيي ! .

● أخلاق جديدة عند الشبان : علمت ان بعضهم يحمل
قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي
يرشحون أنفسهن لخطبتن ، وعلى الخصوص عن حالتهم
المالية وحال بيوتهن ، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطياف
والأماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعها وسن والدها
والأمراض التي يكون مصابا بها وعدد الورثة الذين يتركهم
بعد موته الخ معلومات لا يفكر في جمعها أشد المرابين
احتياطا إذا أقرض مبلغا جسيما بدون تأمين .

● الحجاب الفتنة :

رأيت يوما في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها
خادم ، يظهر من هيئتها انها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة
ممتلئة الجسم ، عمرها بين العشرين والثلاثين ، في
وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة
منطبقة على جسمها انطباقا تاما ، الجزء الأسفل بارز عند

الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاء باعتدال جميل ،
والقسم الأعلى غير مستور ، وانما الملاء مشبوكة في
راسها مسدولة على كتفها وذراعيها الى المرفقين ، على
وجهها قطعة من الوسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه ،
تجيب فاما وذقنها حجابا لطيفا شفافا كما تجيب قطع
السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب
والجبهة والشعر الى منتصف الرأس مكشوفة . كانت
تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل
الراقصة على المرسح ، وكانت تخفض جفونها بحركة
بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة
ورخاوة وحنان واستسلام ، وبالأجمال كان مجموعها
تحريضا مهيجا لحواسهم ! .

● كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها :
« من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن
يحبهم ! » . كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة
بجميع أنواعها ودرجاتها ، كلمة يفزع من هولها كل من
فارق عزيزا محبوبا .

● لا فرق بين من يفشى سرا أو ممن عليه وبين من
يختلس مالا أو دعه عنده .

● الزواج :

المصريون الذين يفهمون ان الزواج معنى غير مجرد
الاستمتاع الموقت هم تابعون لقوانين الحب والأمانة
والاخلاص لنسائهم وأولادهم ، قانون أعلى من مبادئ
حب الذات التي وضعها بعض فقهاءهم .

ما دام الطلاق متروكا الى رأى الزوج يستحيل أن
يثبت فى نفوس الرجال والنساء أن أساس الزواج فكرة
الاستمرار والمعاشرة الى آخر الحياة .

الزواج عندنا حياة رجل لامرأة يوما أو شهرا أو سنة
أو عدة سنين حياة تنتهى بمجرد ارادة الرجل ، ولا فرق
بينها وبين الحياة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع
زوجته الى الباب ويقول لها : اخرجى .

● السامة علامة النفس الشريفة .

● التربية :

يولد الانسان شريرا خبيثا قاسيا محتالا كذوبا . الولد
الصغير لا يعرف الا نفسه ولا يرى الا نفسه ولا يحب الا
نفسه ولا يتألم الا من نفسه ، وفيه اثره هائلة لا حد
لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل ، وتبقى فيه حتى يصل
الى سن الرجال ، فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره
ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة اذا
استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه
الشجرة الخبيثة ، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .

● الوطنية :

من ذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس
الوطنى ؟ عاش آباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة

والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا
الأمم ، ولم نسمع عنهم انهم كانوا يحبون وطنهم ويهتمون
خصومهم بالخيانة ، أما الآن فأيما قرأت وفي أى مكان
وجدت لا أسمع الا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفانى
فى خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية
وحزب الوطن ، والبيوت التجارية والمحال الصناعية
والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتعالج
وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن ديناً جديداً من
اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم
يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقاً حامضاً يجعل تناوله
سهلاً مقبولاً .

● التقلب :

أردنا أن نحصى تقلبات أحد معارفنا فى آرائه
العمومية ، فوجدنا أنه كان عرابياً ، فلما انتهت الثورة
بالفشل صار يطلب السجن والشنق لشركائه وأصحابه !
وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين ،
فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم الى أعدائه ، وصار
أكثرهم سفاهة فى الطعن عليه ! وهو كما يعرف جميع
زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئاً من قصر الدوبارة !
كان يتودد الى أحد أصحاب الجرائد ، ويمده بأفكاره
وأخباره ، ثم قطع كل علاقة به وتحول الى أشد خصومه !
وأخيراً اشترك فى تأسيس جريدتين مبداً كل منهما
مخالف للآخر ! ومن المؤكد ان خاتمة حساباته ستكون
حميدة ، لأنه متى شعر بقرب ملاقاته ربه تقرب اليه
بالدعاء والصلاة !

● اللذة الحقيقية :

اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب ، ولا شئ من الأشياء التى يجرى وراءها الناس عادة ، وانما هى أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم .

● البلاغة :

الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات ، فلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشوا فى الكلام مستهجنا ودليلا على فقر فى الفكر والخيال ، ولكن اذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ، وقد يكون مطلوبا اذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التى بينها . كذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم الا اذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعولون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلًا دقيقًا ، أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من أعصابه وسير قور أحشائه والتسمع على نفسه لادراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميال والحركات ، ويوصف منظر الشئ بهيكلة التام بأجزائه كلها ليحدث فى نفس القارئ أو السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا .

● جنازة :

ما رأيت جنازة مسلم الا اخجلني منظرها . هذه الجمال التي تحمل الفواكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقي لهم منها على الأرض ، وهذه الجاموسة المسكينة التي يزفها الجائعون واستحاذون ويتضاربون على فسمتها قبل ان تموت ، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا وليس فيهم الا العمى والأعرج والأعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين نياجا قدرة ، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة الى جهة اليمين وتارة الى جهة الشمال ، وأحيانا يطير في السماء ان كان من الأولياء المقربين ! .

وهؤلاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن ، وعفرن بالتراب رؤوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل اليه بإشارات مريئة مصحوبة بألفاظ مرتلة ، ما هذا كله ؟ أم جمع مجانين ؟ أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ العوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال ؟ ! .

في الجنازة التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك ، ولا ينقصها الا امر واحد وضعت لأجله هو : اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون .

لما كنت في الأستانة توفي في الليل بفتة رجل كان بيته ملاصقا لبيتنا ، فلم أسمع عويلا ، ولم نشعر بحركة غير اعتيادية ، وفي الضحى خرج النعش ونقل الميت الى

القرافة مشيعا بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط ،
ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن
أو بذكر الله أو بالصلاة على النبي ، بل كانوا يسرون
صامتين خاشعين مطأطين رؤوسهم ، فلما انتهوا من
دفنه عاد أهل الميت الى بيته وأغلقوا الباب كعادتهم .

● شراهة :

دعينا للعشاء عند م . باشا ، وكنا ستة أو سبعة من
الأصحاب ، مسرورين باجتماعنا ، مستعدين للتمتع
بمسامرة ودية مجردة عن التكلف ، وبينما نحن متجهون
الى قاعة الطعام اذ دخل علينا زائر من المشايخ ، فاضطر
صاحب المنزل الى ان يدعو الى الاكل معنا ، فدخل
أمامنا ، واختار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول
الجالسين . جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه
وظهرت سراويله ، ثم برم كم القفطان والقميص الذى
تحتة برما محكما فانكشف الساعد الى المرفق ، فتمثل
لى جالسا فى مكان من الميضاء يستعد للوضوء ! اشتغل
بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث ، ولما كان
بعيدا عن المائدة كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط
بعضه الى ملابسه ، وكان يلقي العظام على مفرش المائدة ،
فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات
الأكل فيقذفها من فمه بقوة يمينا وشمالا .

وبينما نحن شاخصون الى حركات هذا الشيخ صاح
أحدنا - آه يا عينى - وقام واضعا يده على عينه فالتفتنا
حوله وسألناه الخبر ، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت
فى عينيه ، فتأملنا فلم نجد فيها أثرا ، فضحك وقال :
انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر ! .

● الشكل والجوهر :

كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا أن العيب في النظام لا في الرجال ، وفكروا في وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء ، مؤملين أن يجدوا الاصلاح الكبير .

مثلهم كساكن بيت ضعفت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير اثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول - نعب ضائع .

● الرغبة والاستعداد :

ينتى الصغيرة التى عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأتى بنفسها كل ما ترانى أعمله ، فإذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها تقول لى : أنا ايضا أرفعك ، وتمسكنى بيديها من افخاذى وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملنى كما حملتها .

وإذا رأت أن رجلا عبر قناة ماء بوثبة تحفرت لتفعل مثله ، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل ، كذلك الرجل الجاهل ، يخيّل له أنه كفاء لأصعب الأعمال ، ومستحق لأصعب المناصب ، ومساو لأرقى الرجال ، يظن أنه منح استعدادا فطريا يجعله قديرا على كل شيء ، يظن أنه يطيق كل ما يريد .

● عرس :

كنت فى ليلة فرح ، وكانت الحفلة من افخم واجمل

ما رأيت من نوعها ، انفق فيها الذهب بلا حساب .
وعند العاشرة دخل العروس ، وصدحت الموسيقى اعلانا
بذلك ، فقلت لصديق كان جالسا بجانبى : هذا اعلان
لعامة الحاضرين بامر سيتم بين الزوجين ، كان من حسن
الذوق ان يبقى مستورا . وما احسن ما اعتصم به
الفرييون ، فان الزوجين منهم يكونان مع المدعوين اذا بهما
قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون ان يشعر بهما
أحد ، ويفيان عدة أسابيع ، فوافقنى صديقى على
ذلك ثم قال : اتريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئا
رأيت به عيني ؟ قلت : نعم ، فقال :

كان سننى لا يتجاوز تسع سنين ، ولا تزال صورته
الواقعة التى ساقصها الآن محفوظة فى ذاكرتى كما لو
كانت حصلت منذ أسبوع . كان المنزل المقابل لمنزلنا
يستعد شيئا فشيئا لحفلة كبيرة ، نصبوا من أجلها
سرادقا واسعا ، ووضعوا فيه الكراسى المذهبة ، وعلقوا
البيارق والنجف ، وكل يوم يمر يزيد فى رونق الزينة
وترتيبها ، فلما جاءت الليلة الكبيرة اضئت الشموع ،
وصدحت نغمات الموسيقى ، وتقاطرت وفود الرجال
والنساء الى البيت ، يدخلون فيه أفواجا ، فيجلس
الرجال فى الصيوان ، وتختفى النساء فى بيت الحريم
الذى كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه .
ونحن سكان هذا الشارع الصفار عشرين أو ثلاثين طفلا
من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعا ، فرحين
بهذه المناظر البراقة والأنوار الذهبية والأضواء المنتشرة ،
نجلس ونقوم ونجرب ونضحك ونشاجر سكارى من
ضوضاء الأصوات وضياء الأنوار .
فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة ،

دخل الى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من
بينهم ، فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة
بالنساء وهن يتزاحمن للوصول الى الصف الأول ليشاهدن
العروس داخلا . وكان أحد أقاربه ماشيا أمامه ، فصار
يدفعهن بيديه ليخلى له الطريق حتى وصل الى غرفة
عروسته ، فأدخل فيها وأقفل الباب عليه ، وحينئذ
وقف النسوة امام الباب كأنهن يتربصن حادثا كبيرا ،
وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على
شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن
تسمع ، ومن حين الى حين تنادى أحدهن : « هس
يا ستات » ، وتستمر هي في الكلام أكثر من غيرها .
ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال ؟ لا أدري .
ثم سمعت صياحا متكررا أتى من داخل الغرفة ، فازداد
القلق والاضطراب بين جماعة النساء ، وما زال يتضاعف
حتى أدى بهن الى الدق على الباب ، وبعد برهة فتح
الرجل الباب وظهر عارى الرأس بارق العينين محتقن
الوجه ، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاما شديدا مصحوبا
بإشارات الفضب ، ومن وقت لآخر كان يقول : ماذا
أصع . . لا أقدر . . ! وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت
وراءه المراتان ، وتبعه الجيش الذى كان واقفا وراء
الباب مدفوعا كالسيل ، وقد جريت معهم حتى صرت
قريبا من السرير ، فرأيت العجوزين قعدتا على صدر
البنت ، وقبضت أحدهما على ذراعها ، والأخرى على
فخذها ، فزاد صياح البنت ، وبكاؤها ، وتقدم الرجل
وبيده خرقة بيضاء ، رأيتها بعد ذلك ملوثة بالدم ،
فخرجت هاربا من هذا المنظر الشنيع ، لا أشك انهم
ذبحوها ! .

● التحرر :

فى عهد الاستبداد ، فى الوقت الذى كانت فيه كلمة محمد على أو اسماعيل تكفى لاعدام من يفضب عليه أو ارساله الى البحر الأبيض ، فى تلك الأيام السوداء التى كانت فيها حياة الانسان وحرية وأمواله مهددة بأنواع الخطر ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه فى الوجود ضمانة تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بأرائهم .

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم ، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بأرائهم ؟ من ينظر نظرا سطحيا يظن اننا بلغنا من استقلال الراى مبلغا لا ينافسنا فيه أحد ، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للخوف من الحكومة ، بل يرى بالعكس ان الاستخفاف بها صار عاما ، وانه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم ، اللهم الا اذا كان جاويز البوليس أو خفير الترعة ! .

ولكنه اذا حقق النظر لا يلبث أن يرى حرية الانتقاد لم تستعمل الى الآن فى أعمال الحكومة الا الآن هذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم .

أما المسائل الأخرى : الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق ، فلم يتجه فكر الباحثين الى انتقادها ، فهل لم ير أحد منهم فيها عيبا ينتقد ؟ كلا ! وانما هم يرون العيوب ولا يجراون على أظهارها .

● المشروعات الخيرية :

قال أحد أعيان الأقاليم : فى هذه الأيام كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكليات والمستشفيات ولا يمد يده أحد من الأمراء والذوات وكبار الموظفين والأغنياء المقيمين فى العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءا من مقارمها ، يجب على عمد القرى وأعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم ، يسمونها جمعية منكوبى المشروعات الخيرية ! .

● كلما قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها منى صديق أسفت على خسارته وعددته عدوا جديدا .

● قادتنا :

ليس فى مصر عالم محيط بجميع العلم الانسانى ، وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص فى العلم ووقف نفسه على الإمام بجميع ما يتعلق به ، ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته ، مثال هؤلاء هم قادة الراى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها ، فاذا عدمتهم امة حل محلهم الناصحون الجساهلون والسياسيون المشعوذون - والحقيقة المجردة عن الأوهام والأغراض ان كل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الأجنبى وعلى رغم أهلها .

طالب وظيفة :

زارنى أحد اصحابى ، وكان يرافقه شاب من أقاربه

أتم في هذه السنة دروسه ، وطلب منى ان اتوسط له ليحصل على وظيفة ، فمددت يدي الى هذا الشاب مسرورا فوضع فيها يدا فاترة وسحبها بسرعة . اشرت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن أن يجلس على «الكنبا» التي أردت أن أخص قريبة بها ، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد ان تحقق من انتظام تنايأة ثم قعد ووضع رجلا على الأخرى . سألته عن الوظيفة التي يرغبها فعلمت انه يريد أن يعين في وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيها في الشهر ، فأفهمته انه يطلب المحال ، وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب ، فلم يقتنع ، وأخذ يقيم الأدلة على ان الحكومة اذا شاءت يمكنها أن تمنحه بطسريقة استثنائية ، فقلت له : ولكن ما هي المسوغات التي تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذي تطلب ان تتمتع به ؟ فقال : كفاءتي ، فقطعت عليه الكلام ، وكررت له أن طلبه غير مقبول ، فحول وجهه عنى وأخذ يقتل شارب به بحركة عصبية ثم التفت الى وقال : « ممنون ، نهارك سعيد » ، وخرج ، وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لي بكلمتين ، فلما خرجا سرح فكرى فيما سمعت ورايت ، وتأملت في حال هذا الشاب ، ووردت على خاطري أحوال أخرى وقعت من أمثاله معى ومع غيرى ، أحوال تنذر بوجود حالة ادبية سيئة عند الكثير مع شبابنا ، تجعلهم صنفا خاصا لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضى التي عاشت كثيرا من أفرادها ، ولا الشبيبة التي عرفت في البلاد الغربية واختلطت بها زمنا . هذه الواقعة حركت في نفسى حياتى الماضية ، ومثلت في ذاكرتى صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد ، وكانوا مع ذلك لا ينقصون

من جهة المعارف عما يتحصله الشباب في هذه الأيام ،
وانما الفرق هو ان الشيء القليل الذي يتعلمه الشاب في
هذا الزمن يتورم في مخه حتى يسسد فراغه ويجعله
يتخيل انه يحمل كنوز السماوات والأرض .

● العقريّة :

العقل والجنون شيئان متضادان ، ولكن حدودهما
متجاورة مختلطة . وفي الحقيقة لا يعرف أحدا أين
ينتهي العقل وأنى يبتدىء الجنون . ان كان التوازن بين
قوى النفس هو علامة العقل ، فالنبوغ في المدارك
والخيال يكون غالبا نتيجة اختلال في هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعظم الرجال يشدون
في الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة
والخرافات الصّـبـيـانية أو افراط معيب في تطلب
الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ في
الحواس عن القوانين الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون
عنده مخالفا أو زائدا عما تشاهد عند متوسطى الحال
في الذكاء والاحساس .

ربما كان الإبداع في الاختراع والتأليف وما يستلزمه
من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر
الأعصاب والجهد في توليد المعانى من أسباب تعاضل هذا
الشذوذ الذى يجعل النابغة انسانا غريبا زائدا من جهة
وناقصا من جهة أخرى .

● معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر .

● مصطفى كامل :

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، يوم الاحتفال بجنائز مصطفى كامل ، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي :

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة يائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل المدينة .

ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوما في النفوس ، لم يجد سبيلا يخرج منه ، فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

أما في يوم الاحتفال بجنائز صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا في قوة جماله ، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته الى قلوبنا الجسامدة الباردة ، هو المستقبل !

فهرس

صفحة

٧	تقديم
١٣	بطاقة حياة
٢٥	قسمات المنهج الاجتماعى
٤١	المجتمع الذى بشر به
٥٣	التطور الفكرى
٧٣	حرية المرأة
٩١	فى التمدن الاسلامى
١١١	مصر .. والمصرية .. والمصريون
١٢١	فى الوطنية
١٣٢	الأعمال الكاملة لقاسم أمين
١٣٨	كلمات

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٠/٢٤٨٢
الترقيم الدولي ٥ - ٦٤ - ٧٠٣١
ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نجاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS

7. Bishopstrove Road

London S.E. 26

ENGLAND

: انجلترا

M. Miguel Maccul Cury.

B. 25 de Marac, 994

Caixa Postal 7406,

Sao Paulo. BRASIL

: البرازيل



هذا الكتاب

لم يؤلف قاسم أمين في حياته إلا كتابين : « تحرير المرأة » ثم « المرأة الجديدة » والكتابان صغيران ، والكلام فيهما مرسل في بساطة وهدوء وتواضع . ولكن هذا الكلام الهادئ البسيط أحدث أكبر ثورة اجتماعية عرفها تاريخ العرب الحديث : ثورة تحرير المرأة العربية وخروجها من قيود العصور المظلمة لكي تتمتع بحريتها التي وهبها الله إياها ثم ليفيد منها المجتمع ، لأن أي مجتمع سليم لا يمكن أن ينهض ويتقدم إذا كانت نساؤه مقيدات حبيسات لا يفيد منهن أحد .

وقد أثار قاسم أمين - ذلك القاضي الوديع - بكلامه عاصفة ، لأن البديهيّات التي قالها كانت بالنسبة لأهل العصر جراحة وخروجاً على التقاليد والنظم وقواعد الحشمة والآداب حتى لقد ذهب نفر من المحتجين عليه وطلبوا مقابلة حرمه زاعمين أن هذا حقهم بحسب كلامه نفسه ، وحاول أن يقنعهم بأنه طالب بحرية المرأة ولم يطالب بالفوضى وتخريب المجتمع ..

هذا كله هو موضوع الكتاب الذي نقدمه ضمن سلسلة كتب هذا الشهر ، أنه دراسة لقاسم أمين وآرائه في تحرير قواعد الإسلام نفسه ، ود . محمد عمارة باحث متمكن وعقل مجدد في كل ما يتعلق بالفكر العربي الإسلامى . إذ ينشر هذا الكتاب يساهم مساهمة إيجابية في مناهضة لأنه لا زال هناك من بيننا من يرون أن قاسم أمين كان أضر بالمجتمع العربي بآرائه ، وهم ينسون أن المرأة حتى لو لم يكتب قاسم أمين كتابيه هذين .

Bibliotheca Alexandrina



0392682